

الإسلام وحضارة العصر

أزمة العصر - الدين والدولة والمجتمع - إيمان العصر
الإسلام والعلم - الإسلام والحياة - الإسلام وحرية الإرادة
الإسلام والأخلاق

obeikandi.com

أزمة العصر

وبعد فإننا في حاجة إلى التعريف بروح الإسلام في عالم تعصف المادية الغربية فيه بكل قيم الماضى وتراثه الروحى العظيم كحاجتنا اليوم، فإذا كان الغرب المسيحى قد برم بالدين ونار عليه وتكر له فلائه قد عجز عن أن يوائم بين الدين والحياة وبين الدين والعلم، وحين عجز عن التوفيق بينهما وضع البذرة النامية في أزمة الإنسان المعاصر، وهى البذرة التى توشك أن تعصف بحضارة العصر وتدمر تراث الماضى الباهر، حتى قام من أبنائه من ينذر بالكارثة القادمة ويعمل لتوقيها بالبحث في أسبابها: فمنهم من ردها إلى عجز الفلسفة عن ملاحقة التغير المستمر في معارفنا وفي محيط حياتنا ومنهم من ردها إلى بوار العقيدة الدينية، وآخرون إلى خلل التوازن بين التقدم المادى والتقدم الروحى، أو إلى انهيار الفردية أو ضمور الحرية أو ابتعاد ثقافة العصر - ويعنى الثقافة الغربية - عن جذورها القديمة. ومهما يكن من طابع الأزمة التى يعانىها الغرب والتى تلفح العالم بسياتها بما للغرب من سيطرة على العلم الحديث والثقافة والعصرية، فإننا في الشرق، وفي الشرق الإسلامى بنوع خاص، لنا أزمنا الخاصة التى تتصل بوجودنا كما تتصل بتراثنا الثقافى وقدرتنا على التكيف مع روح العصر النامى الدائم التغير وبما تتأثر به ثقافتنا من ثقافة الغرب الغالبة. فما هو موقفنا من الحضارة السائدة، وما هو موقعنا الحقيقى في هذا العالم؟ وهل نستطيع أن نقدم للإنسانية بعض ما قدمه الإسلام في فجره الأول حين خيم الظلام على أرجاء العالمين الفارسي والرومانى؟

هل نستطيع أن نقدم للعالم زاداً جديداً من القيم والفضائل وأسلوباً للحياة يتقبله العالم ويرضى عنه حين يرى فيه إنقاذاً له من أزمته التى يتردى فيها؟ وهل نجد في تراثنا الروحى وفي قيم ديننا العظيم وفضائله ما يهdy الإنسانية إلى الخير والحق ويجنبها الخطر الذى تتردى فيه؟

وهل نرى فيها ما يزود نهضتنا بالقوة، ويهdy خطانا إلى الصواب ويضىء آمالنا وأحلامنا بنور اليقين؟

وهل نجد في ديننا ما ضل عنه الغرب حين حجبت المادة عنه سرّ الوجود الأعلى فنرى على نور العلم سر الوجود الأعلى؟

لقد كفرت الحضارة السائدة - حضارة الغرب المسيحى - بالدين، وعدته مياجاً يحجب الحقيقة عن العقل وعائفاً يحول بين العقل وبين التحرر والأنطلاق. ولما ثارت المعركة

بين السلطين الزمنية والدينية كان انتصار السلطة الزمنية في النهاية قضاء على ما كان لرجل الدين من سلطة على النفوس قبل أن تكون قضاء على ما كان له من سلطان على الناس، فلما ضعف شأن رجال الدين لم يجدوا لسلطانهم لواءاً إلا في التحيز للملكيات المطلقة التي استمدت سلطتها من الحق الإلهي للملوك، فلما تارت الشعوب على استبداد الملوك وطفانهم امتدت ثورتها إلى الكنيسة ورجال الدين بل والدين نفسه، فإذا كانت الثورة الفرنسية قد عصفت بملكية البوربون فقد عصفت في الوقت نفسه بالكنيسة الفرنسية ذات التقاليد العريقة وبامتيازات طبقة الكليروس التي لم تكن لتقل أبهة وجاهاً ونفوذاً عما كان للبلاد الفرنسية من الأبهة والجاه والنفوذ وقضت على ما كان للدين ورجالها من توفير في نفوس الجماهير.

ولما جاءت ثورة العلم وقفت منها الكنيسة موقفاً عنيداً لم يحسن على العلم بقدر ما جنى على الدين، فأصبحت النظرة الأوروبية للدين عامة أنه عائق أمام التقدم وأنه سبب يحجب العقل عن رؤيه الحقيقة، فلا مجال للتقدم ما لم يتحرر الفرد من وقر الدين. كانت هذه هي النظرة العامة لمن تحرروا من الدين وكفروا به، وامتدت نظرتهم تلك إلى كل دين آخر، فالدين أيّاً كان، خرافة لا يقبلها العقل.

أما الذين ظلوا على إيمانهم بالمسيحية، وقاموا بالتوفيق بينها وبين العقل، فقد لفحتهم نيران التعصب بالظن على الإسلام وتجرّبه، ووجدوا في ركود العالم الإسلامي في الوقت الذي تفتحت فيه الحياة الأوروبية واثمرت حضارتها الحديثة حجة للظن عليه ورميه بالجمود والتأخر. ففي مطلع هذا القرن نشر هانوتو، وزير خارجية فرنسا، حينذاك مقالاً في صحيفة «الجورنال» الفرنسية عرض فيه بالإسلام ونسب إليه علّة التأخر والتواكل وفتور الهمة وكان الفيلسوف الفرنسي «ارنست رينان» قد قال مثل ذلك في دراسته لابن رشد ومذهبه، وانبرى لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ففند أقوالها، وشرح لها موقف الإسلام من المدنية والعلم فليس بينه وبينها من تناقض ما كان بينها وبين موقف رجال الكليروس من العلم والمدنية ونسبوه إلى المسيحية.

وبعد ذلك بسنوات طعن كرومر على الإسلام واتهمه بالجمود، وانبرى له الكتاب يفتنون أقواله ويردون عليه.

وسواء كان موقف الثائرين بالدين والخارجين عليه في أوروبا أو موقف المسيحيين المتدينين من الإسلام، فإن موقفها معاً إنما ينبعث بين الفريق الأول من نظرتهم إلى الدين عامة وحكمهم على الإسلام بما حكموا به على المسيحية، وبين الفريق الآخر من تعصبهم

الدينى. وكلتا النظرتين قائمة على الجهل بالإسلام ومعرفة حقيقة وموقفه من العلم والتقدم. فالإسلام لا يقف عائقاً دون التحرر والتفكير والتأمل والنظر ولا يضيق بالعلم بل يحث عليه ويطلبه. وفي الحديث الشريف «اطلبوا العلم ولو بالصين» ومن البديهي ألا يكون علم الصين دينياً، وإنما المقصود به العلم الطبيعى، وفي حديث آخر «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» ما يشير إلى غو المعرفة واستمرارها.

وإنما لنرى الإمام محمد عبده يجول في صفحات التاريخ فيقول: «أخذ بيد القارىء الآن، وأرجع به إلى ما مضى من الزمان. وأقف به وقفةً بين يدي خلفاء بنى أمية والأئمة من بنى العباس ووزرائهم، والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والأئمة المجتهدون من حوهم والأدباء والمؤرخون والأطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر أهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم، وكل مقبل على عمله، فإذا فرغ عامل من العمل أقبل على أخيه ووضع يده في يده يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضى الحكيم. وكل يرى في صاحبه عوناً على ما يشغل هو به. وهكذا أدخل به بيتاً من بيوت العلم. فأجد جميع هؤلاء سواء في ذلك البيت يتحادثون ويتباحثون والإمام البخارى حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجى يأخذ عنه الحديث، وعمر بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصرى شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل:

« لقد سألت عن رجل كان الملائكة أدبته ، وكأن الأنبياء ربته ، إن قام بأمر قعد به ، وإن قعد بأمر قام به ، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له ، وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له ، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ، ولا باطناً أشبه بظاهر فيه ... »
« بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة أمام الإمام زيد بن على - صاحب مذهب الزيدية من الشيعة - يتعلم منه أصول العقائد والفقه، ولا يجد أحدهم من الآخر إلا ما يجد صاحب رأى في حديثه ممن ينازعه فيه اجتهداً في بيان المصلحة - وهما من أهل بيت واحد - أمر به بين تلك الصفوف التى كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة ، وهى العلم » .

حتى يقول :

« فهناك يشير القارئ المنصف إلى أولئك المسلمين وأنصار ذلك الدين، ويقول: ها هنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته، ها هنا يوصف الدين بالكرم والحلم، ها هنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية، عن هؤلاء العلماء والحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر، ومنهم تهبط روح المسألة بين العقل والوجدان، أو بين العقل والقلب كما يقولون...».

« يرى القارئ أنه لم يكن جلا د بين العلم والدين، وإنما كان بين أهل العلم وبين أهل الدين شيء من التخال ف الآراء شأن الأحرار فى الأفكار الذين أطلقوا من غلّ التقيد وعوفوا من علّة التقليد...».

وما زالت أزمة الدين فى الحضارة الأوربية قائمة لا تحلّ، والخلاف بين المتدينين والملحدّين مستمر والجمهرة الغالبة من الناس بين الفريقين لا أقول حائرة وإنما نبذت الدين واستغنت عنه بالدنيا، فإن بقيت له بقية فى النفوس فمن قبيل الشكل دون الجوهر ومن قبيل الإقرار الشفوى دون العمل.

إلا أن الإنسان مما حمل من تراث ماضيه، ومما وقر فى أعماقه من صلته الخفية بعالم علوى لا يراه بقدر ما يثور به وجدانه، مازال ينشد الرؤيا الواضحة لتلك الصلة الخفية بينه وبين خالقه، ومازال ينشد فيها العون والهداية، فقد خلق الإنسان ضعيفاً وإنه ليستمدّ فى ضعفه العون من خالقه، وقديماً صنع لنفسه صنماً يلوذ به من الخوف المجهول، فإذا نبذ عقيدة من العقائد فلاّنه لا يرى فيها ملاذ روحه ولا يجد فيها حلاً لمشكلات حياته.

وأزمة العصر ليست أزمة الانطلاق من الدين والتحرر منه، وإنما أزمته هى فى البحث عن ذاته فى عالمه ومعرفة صيرورته حين تتوارى ذاته فى العالم الآخر، وهو فى حاجته إلى الأمن واليقين وفى حاجته إلى مقابلة التحدى الذى يواجهه حياته فى حاجة لأن يواجه يقينه بالمعرفة التى توفّق بين العقل والروح.

وهى أزمة تصنعها الدولة وتصنعها المجتمع ويصنعها تشابك العلاقات والنظم الاجتماعية وتصنعها الغريزة حين تتحرر من عقاها فتنتطق كما تنطق بالسائمة إلى حيوانية بشعة نراها تمثّل ظاهرة من الانحلال والتحرر من قيم الماضى كنوع من التعبير عن الذات. وهى أزمة الشك والقلق الذى يعصف بالإنسان مما يحيط به ومما ينتظر مستقبله ومما يؤوّل إليه مصيره.

وهى أزمة الإنسان الذى يلقي بنفسه فى جحيم الآلام ويفتك بغيره من أبناء جنسه بغية طمع لا يتحقق.

وهى أزمة المعرفة الحقّة واليقين الثابت الذى يقود الإنسان إلى الحق والخير والجمال. وهى أخيراً أزمة التوافق مع الواقع الحى ومع الصلة العليا التى تربط الإنسان بوحدة الكون فى قانونه الأبدى.

ولعلنا فى دراستنا للإسلام وروح العصر نستطيع أن نجتلى ما يمكن أن يقدمه ديننا الحنيف لحلّ أزمة العصر وهداية الإنسانية إلى طريق تقودها إلى مدنية أسمى بتوفيقه بين الروح والعقل وبين الفكر والواقع ومما ثبت فى نفس الإنسان من إحساس بالحق فى حياته الجارية.

الدين والدولة والمجتمع:

لعب الدين في تاريخ المجتمعات السياسية دوراً كبيراً لا يدانيه فيه أى عامل آخر. وقبل قيام المجتمعات السياسية كان الدين في الجماعات التوتمية متمزجاً بالحياة الاجتماعية متصلاً بفرائز الفرد وتفكيره أشد اتصالاً. وكان التوتم في حياة الجماعة أصلاً لوجودها وللصلات التي تربط بينها والتي تعدّ في المجتمع التوتمى أقوى من صلات الأسرة. فإذا انتقلنا إلى مجتمع أكثر تقدماً كمجتمع القبيلة نجد أن الملوك المؤهين يمثلون الامتداد الطبيعي لرؤساء العشائر التوتمية، وكانوا رؤساء دينيين تنتهى إليهم الرئاسة عن طريق خصائصهم الدينية التي يتناقضونها بالوراثة إلى الابن أو الأخ وابن الأخ إن لم يكن للرئيس من صلبه ولد، وتمثل هذه الخصائص في توتم العشيرة التي يرأسها، وفي معرفة الأسرار الدينية وطقوسها العديدة، وفي بلوغه سنّاً تؤهله لرئاسة محافل العشيرة وطقوسها.

ثم كان التطور الاجتماعى الأكثر تقدماً، تطوراً في الدين والأخلاق قبل أن يغدو تطوراً في التركيب الاجتماعى وحين نشأت الدولة في مصر القديمة - وهى أقدم مجتمع حضارى في التاريخ - نشأت في رحاب الدين، وكانت شعائر الملكية ورسومها شعائر ورسوماً دينية، وكان الملك المؤله في حياته والإله بعد مماته، وكانت المجتمعات المجاورة في الهلال الخصيب وفي أرض الرافدين بمجتمعات دينية متمزجة فيها طقوس الدين بالحياة الاجتماعية كما تتمزج في السلطة السياسية سلطة الملك وسلطة الكاهن الأكبر، وكان الدين قوام الدولة فالملك يقيم عبادة الآلهة ويرعاها ويحرس البلاد ويكفل رخاء الأهلىن. وكما كان فراعنه مصر وملوك ما بين النهرين كان أباطرة روما أرباب الامبراطورية، وإن كان الأباطرة الأرباب أرباباً سياسيين لا أرباباً إلهيين كما كان ملوك الشرق، ولم يكن للإغريق آلهة من الملوك، وكان الدين عندهم نظاماً أخلاقياً أكثر منه لاهوتياً تغلفه الأسطورة والخيال أكثر مما يغلفه السحر والطقوس.

ولما حلَّ عصر الإيمان وبعثت ديانات السماء، ضرب الدين على الشعب اليهودى عزلةً مريرة وعنصرية حادة، وطبع حياتهم بطابع خاص لم يتحرروا منه حتى اليوم، وحين راحوا ينشدون إقامة دولة، ويتطلعون إلى ملك، كانت عنصريتهم تقضى عليهم وتدمرهم في النهاية، وأصبح المجتمع اليهودى مجتمعاً مغلقاً على ذاته لا يستطيع التحرر مما غذته به التوراة والتلمود من فكر عسير. بينما انطلقت المسيحية تبشر بملكووت السماء، فلما أصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية استأثرت الكنيسة المسيحية بسلطان الدين والدنيا.

وأصبحت هي السلطة الفعلية الحاكمة والمتحكمة في سلوك الناس وفي ضمائرهم، فحلت التبعية للملكة الساء محل المواطنة الرومانية، ولم تعد روما القديمة التي وصفها «فرجيل» بأنها «ظئر الآلهة الفريجية على رأسها تاج من أبراج تطوف بعربتها مدن فريجيا بذريتها الإلهية وقد احتضنت بعض أحفادها من أهل السموات العلاء» وأصبحت «روما الزانية أم البغايا التي سفكت دماء القديسين والشهداء».

ولم تمض بضعة قرون حتى أشرق الإسلام بآلاء باهر غمر سماء الجزيرة العربية كما غمرت أضواء المسيحية مدن الجليل من قبل. وكانت بلاد العرب خلواً من أى سلطان للدولة بينما كانت فلسطين أيلة رومانية، فلما انتشر رسل المسيحية يبشرون بملكوت الساء كان العالم الرومانى ميدان دعوتهم فاصطدموا بالدولة، وكان انتصارها في صمود مبشرها ومعتنيها لعسف الدولة وتنكيلها بهم، حتى آن لها أن تنتصر بعد ثلاثة قرون من ميلاد المسيح حين خال لقسطنطين أن الصليب - وهو رمز المسيح وإله الشمس على السواء - بشيره بالنصر، فأعلن حمايته لها، ولم يمض طويل وقت حتى أصبحت ديانة رسمية للدولة. ولم يواجه الإسلام ما واجهت المسيحية من عسف الدولة وطغيانها. فلما تكونت الجماعة الإسلامية الأولى استطاعت أن تحمى نفسها وتدفع عن وجودها وتنزل بكل من يتعرض لها أو يهددها العقاب الزاجر، فكانت السرايا والغزوات، ثم الوقائع التي كسبت فيها النصر على مشركى مكة ويهود المدينة تأميناً لها وإعلاء لشأن العقيدة. ولم تمض بضعة سنوات حتى امتد سلطان الإسلام شرقاً وغرباً، فأقام في مدى ثلاثين عاماً دولة أهلت على الدنيا بنور اليقين.

وفي الوقت الذى علا فيه نجم الدولة الإسلامية فاجتعت فيها حضارة العصور الوسطى، وغدا المسلمون حماة الحضارة الانسانية وبناتها الأفذاذ، كانت الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت إلى قسمين: شرقية، وغربية. وظل القسم الشرقى بنجوة من غارات القبائل الجرمانية المتبربرة حفيظاً على شعائر الحكم الرومانى ونظم الدولة. أما القسم الغربى فكان مصيرة مختلفاً، فانهارت الإمبراطورية فيه تحت ضغط الجرمان وضرباتهم المتوالية وحملت الكنيسة وحدها عبء المحافظة - ما أمكن - على تراث الحضارة القديم في عالم آل السلطان فيه لأولئك البرابرة المحدثين، وكانت البداية لمسئولية حملتها طوال العصور الوسطى، فأخذت تستقل بشئونها وما لبثت أن استحوذت على سلطان الدين والدنيا معاً. وبقيت الكنيسة الشرقية في القسطنطينية خاضعة لسلطان الإمبراطور لا تجرؤ على مخالفة التقاليد الكنسية الأولى، فاستمت بالمحافظة والجمود وبقي للإمبراطور فيها سلطانه الأعلى. وبينما احتفظ الإسلام بجوهرة النقى، ولاذت الكنيسة الشرقية بالتزمت وغلبت عليها

بيروقراطية الدولة ونظامها القانوني، كانت الكنيسة الغربية قد هجرت الأسلوب العقلي للحضارة الهيلينية، وأقامت عالماً من تصور القديس أوغسطين يقوم على الزهد والتجرد اللاهوتي، فقد خلق الله الدنيا متاعاً عابراً والأخرة للمتقين خالدين فيها أبداً وما الدنيا إلا دار شرّ وقلق لا منجاة منها إلا بنور الهدى، فمن اهتدى فله الجنة ونعيمها المقيم، ومن غوى فإلى النار وبئس القرار، وما لبثت أن نادى بسلطتها فوق أية سلطة أخرى فأصبحت - كما يقول فيشر - هي «الإمبراطورية في قالب كنسي» ودان لها عالم العصور الوسطى في الغرب لألف عام قادمة.

وصاغ الدين عالم ذلك العصر وحضارته في الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ولكنه كان عالماً متبايناً في جوانبه تباين ما بين الإسلام والمسيحية في النظرتين العقلية والدينية فهما وإن كانتا فرعى ديانة واحدة اكتملت في تطورها رسالة السواء، إلا أنها كانتا متباينتين في ظروفهما ونشأتها فليس بينهما - إذا استثنينا عقيدة الأبوة الإلهية في المسيحية - ثمة خلاف أساسي، كما يقول سيد أمير على، «فهما في جوهرهما دين واحد، وكلاهما وليد القوى الروحية المتشابهة في الإنسانية».

فالمسيحية «احتجاج صارخ على المادية الصارمة السائدة بين الرومان» والإسلام «ثورة على الوثنية العربية المتدهورة وعلى تقاليد العرب وأوابدهم». إلا أن المسيحية ظهرت بين أقوام أكثر استقراراً وحضارة من أهل الجزيرة العربية لهم حكومة منظمة فكانت المساواة التي تحاربها أخف نسبياً في وطنها بينما ظهر الإسلام وسط قبائل وعشائر متأخرة فكان عليه أن يقاوم كل ما تأصل في نفوسهم من حب الأثرة وحب الذات والتشبث بالخرافات القديمة. وقد ظل الإسلام محتفظاً بنقاء جوهره وعقيدته. ولعل ذلك بسبب نشأته بعيداً عن المؤثرات الحضارية المجاورة وإن كنا نعتقد أن اكتماله كان السبب الأول في بقاءه نقياً فلم يكن في حاجة إلى الاقتباس أو التزود بما يكمل نقصه، وأنه قضى في البداية على كل فكر سابق عليه عند العرب، وأقام مجتمعاً جديداً لا صلة له بالمجتمع القديم في مثله وأخلاقه وتقاليد بل وفي مجرى تفكيره العام، إذ قام على تفكير عقلي متوازن بعيداً عن التجريدات الغامضة وشريعة يقبلها المنطق ولا يجد فيها الرجل البسيط ما يجاوز عقله أو تفكيره أو يناقض طبيعته الإنسانية. بينما نشأت المسيحية في عالم مترع بالثقافات العديدة وفي بقعة تلات فيها شتى التيارات الفكرية والفلسفية، وكان من اليسير أن تنجو من تأثيرها لولا أن داعيتها العظيم الرسول بولس كان قد تشرب الفلسفة اليونانية في مدارس الإسكندرية فمزج ما بينها وبين المسيحية في جوهرها الصافي، وتحولت على يديه إلى ديانة أخرى منذ ابتعدت عن موطنها الأصلي وأصبحت ديانة بولس - كما يقول سيد أمير على - ولم تعد

ديانة عيسى، فقد كانت الوثنية القديمة في طريقها إلى الانهيار في الوقت الذي هبّت فيه فلسفة اليونان والإسكندرية العالم الروماني لتقبل فكرة الإله المتجدد، خالق العالم، والجوهر المولود قبل كل الدهور، فتأصلت هذه الفكرة في مسيحية يولس، وكانت المسيحية الجديدة - كما يقول - نتاج حضارة عاشت قروناً قبل المسيح وبعد، وأصبحت أقرب ما تكون إلى الفلسفة منها إلى الدين السماوي.

وفي هذا ما يفسر رأى فيشر في انتشار المسيحية بين الرومان إذ يقول: «إن التحول عن الوثنية إلى المسيحية لم يكن انتقالاً إلى جوٍّ غريب تمام الغرابة أو شعوراً بانقلاب مباغت مفاجئ، بل كان تحولاً رقيقاً في كثير من التدرج الشعوري والعاطفي، إذ شابهت طقوس المسيحية وأسرارها المقدسة طقوس وأسرار الديانات القديمة كما تضمنت تعاليمها تعاليم الأفلاطونية الحديثة، ثم إن القول بوجود وساطة بين الله والناس كان أمراً مألوفاً عند الفرس وأهل الأفلاطونية الحديثة على السواء، وإن الثالوث فكرة دينية مستمدة من الحقيقة القائلة بأن الثلاثة هي العدد التام هذا فضلاً عن أن الزهد والفقر والنشوة الروحية والقنوت لم تكن جديدة على أهل الديانات القديمة، كما أن فكرة الآخرة وما حوت من جنات ونعيم وسعير وجحيم، لم تنفرد بها المسيحية وحدها بل أجمع أصحاب متراس وديانته الفارسية وأصحاب الفلسفة الرواقية في اليونان على أن مصير العالم إلى الفناء بالنار وبس القرار».

كما يقول: «إن ثقافة الكنيسة الرومانية الغربية تأسست على مزيج متعادل من الأنجيل المسيحية والكتب اليهودية المقدسة بالإضافة إلى الثقافة التي ظلت باقية في المدارس القديمة برغم زوال الوثنية وأقول العالم القديم، وهذا المزيج المتعادل هو الذي طبع الحياة العقلية بغرب أوروبا أوائل العصر الوسيط حين كانت الكنيسة وحدها هي الحفيظة على الكتب ونسخها».

ثم وقع الإسلام فيها وقعت فيه المسيحية، ولكن بصورة أخرى، وإن بقي جوهر عقيدته على صفائه الأصيل فلم يتعدّ ما أصابه الشكل إلى الجوهر، ولم يؤثر تعدد المذاهب والفرق على الأساس الذي قامت عليه العقيدة ولعل ذلك كان سبب خلوه من الكهانة والطقوس الدينية وطفيان رجال الإكليروس، فقد ظلّ رجل الفقه الإسلامي متجرّداً للبحث والاجتهاد وتقنين الشريعة بعيداً عن سلطان الدولة ولم يكن صاحب سلطان أو حكم، وكثيراً ما عاف مناصب الدولة وعف عنها حتى لا يكون لها على أحكامه سلطان. ولم يكن للدولة من سلطان على العقيدة وإن كانت تحميها وتدفع عنها، وكان ما وقع بالإسلام هو الجهل ثم التحلل من

مسئولية الضمير، فضلاً عما جره الخلاف السياسي من تعدد الفرق والمذاهب وتسخير الدين للسياسة.

أما الجهل فقد بدأ يخيم على العالم الإسلامي، وينشر ظلاله السوداء إثر حادثين تركا آثارهما المقيته لعدة قرون قادمة.

أولهما: جولة التتار المخربة في أرجاء العالم الإسلامي وسقوط بغداد تحت سنايك خيلهم سنة ٦٥٦هـ. الموافقة لسنة ١٢٥٨م، بعد سنوات من التحلل والانقسام والضعف الذي آلت إليه الدولة العباسية.

وثانيهما: سيطرة العثمانيين على العالم الإسلامي وما انتهت إليه من سيطرة الدولة على الدين.

ولم يكن لحادث التتار شبيه في التاريخ إلا ما كان من قبل الظواهر الطبيعية كالزلازل والبراكين أو العواصف الجائحة المدمرة، بل إن هذه الظواهر الطبيعية تقصر عنه ولا تدانيه تدميراً وتخريباً، ولولا خفقة بقية بالقاهرة لحيم ظلام قاتم على أرجاء الحضارة الإنسانية في الشرق وفي الغرب، فقد صانت القاهرة بقايا الحضارة الإسلامية الذاتية، ووقفت أمام تقدم التتار وأنزلت بهم الهزيمة في عين جالوت، وحالت بينهم وبين الانسياح غرباً إلى مواطن الحضارة المسيحية التي توشك أن تخرج من ظلام العصور الوسطى. ولم يجمع المؤرخون في الإسلام وفي المسيحية على السواء قدر ما أجمعوا على ما كان لمصر من فضل في إنقاذ الحضارة الإنسانية من العاصفة المدمرة القادمة من الشرق.

وكان من اليسير أن ينجو العالم الإسلامي من آثار الكارثة التي خلفها التتار وراءهم لولا أن عوامل الضعف والفتور قد أخذت تحل بالمسلمين، فأقفل باب الاجتهاد، وأرتد العقل إلى جمود قاتل نصبت فيه القرائح، حتى جاء الغزو العثماني فزاد الجهل عمقا، وأصبح الدين رسوماً وطقوساً تؤدي غلب عليها الطابع اللاهوتي الذي غلب على المسيحية من قبل، يعبر عنها سيد أمير على تعبيراً جميلاً بقوله: «لقد أفصح أحد الوعاظ المسيحيين في بيان واضح عن الفرق بين الدين واللاهوت وما أصاب الكنيسة المسيحية من جراء الخلط بينهما.. وما جرى في المسيحية جرى في الإسلام فقد حلت سخرية الإقرار الشفوي في الإسلام محل العمل وحل التمسك بالرسوم محل الجد الصادق بإسداء الخير للإنسان حبا في الخير وابتغاء مرضاة الله» فلم يكن العثمانيون أهل علم أو حضارة وحين دخلوا عالم الإسلام كانت الحضارة الإسلامية قد أوغلت في الانحدار فأخذوا بالرسوم والشكل دون الجوهر فحكموا الدولة بسلطان الدين ولم يدركوا سماحته ونبله، ومن سخرية الأقدار أن تلعب القسطنطينية،

وقد أصبحت الآستانة أو استانبول في الإسلام، نفس الدور الذي لعبته في المسيحية فحين خضعت الكنيسة الشرقية في القسطنطينية لإمرة الإمبراطور وبيروقراطية الدولة خضع الإسلام في الآستانة لصولة الخليفة وطابع مشابه من البيروقراطية العثمانية التي سادت عالم العثمانيين وكان الغزو العثماني وإن شابه غزو البرابرة والجرمان للإمبراطورية الغربية إلا أنها انتهت إلى نتيجتين مختلفتين لا من حيث الشكل ولكن من حيث الأثر، فإذا كانت غزوات الجرمان قد أدت إلى قيام وحدة كنسية حلت محل الوحدة الإمبراطورية تسودها الكنيسة والسلطة البابوية، فإن غزو العثمانيين قد أدى إلى وحدة العالم العربي وخضوعه للسيادة العثمانية، ولكنه على عكس ما حدث في الإمبراطورية الغربية أخضع الدين لسلطان الخليفة، وفي الحالين في روما وفي الآستانة كان الدين مراسم وطقوساً لاهوتية تؤدي دون تفكير.

وكان الدين في الحالين سلاحاً للسلطة تسخره لمنفعتيها وتستغله لحماية طغيانها فليس هناك ما هو أقوى من العقيدة تقود بها الدولة الجماهير لما تنشده من بسط نفوذها وبناء سلطانتها، ولا يعني هذا أن الدين قد فشل في تحقيق الغاية التي تنشأ من أجلها الدولة أو أنه فقد التوافق والانساق مع طبيعة الدولة، فالدين عقيدة تصوغ حياة الناس وسلوكهم وفي أحيان كثيرة معاملاتهم الاجتماعية، والدولة نظام قانوني يقوم على تحقيق الخير العام في إطار من التوافق بين القانون الذي تسنه ومطالب الجماعة السياسية لا كمصدر للسيادة فحسب ولكن لأن الإرادة العامة للجماعة السياسية إنما تمثل الرغبات التي تجيش في صدر أعضاء الجماعة وفقاً لمنهجهم في الحياة.

ومنذ ذلك الحين بدأت الدولة تبتعد عن الدين وتحرر من أساره في الغرب المسيحي، بينما ارتدت مسوح الدين في الشرق الإسلامي فلم يكن للدين الإسلامي نظرية في الدولة وإن جاء مبدأى عامة للحكم، ولم يجمع بين الدين والدولة بل فصل بينهما تماماً ولكن الدولة هي التي تمسحت بالدين واستعانت به في فرض سلطانتها على النفوس فزادت سلطة رجال الدين أو المشتغلين به بمعنى أدق، إذ لم يكن في الإسلام مثل هذه الطبقة أو الطائفة. وظلت الدولة في ذاتها بعيدة عن أن تكون دولة ثيوقراطية وإن اتخذت من المشتغلين بالدين أعواناً لها وكان ما تردى فيه المسلمون من جهل حكاماً ومحكومين هو الذي أدى إلى ذلك فقد «أخطأ المسلم - كما يقول الشيخ محمد عبده - في فهم معنى الطاعة لأولى الأمر والانقياد لأوامرهم فألقى مقاليدته إلى الحاكم ووكل إليه التصرف في شئونه.. أما الحكام، وقد كانوا أقدر الناس على انتشال الأمة مما سقطت فيه، فأصابهم من الجهل بما فرض عليهم في أداء

وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة ولم يفهموا من معنى الحكم إلاّ تسخير الأبدان لأهوائهم، وإذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها في إرضاء شهواتهم لا يرعون في ذلك عدلاً ولا يستشيرون كتاباً ولا يتبعون سنة حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والافتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلاّ حلّ بها العذاب».

وكانت العملية والاتجاه العقلي سبباً في تحرر الدولة من أسار الدين وطفيلانه في الغرب بينما فرض الجهل والجمود العقلي وإنكار العقل والخضوع للغبييات سلطناً رهيباً على الدين والدولة معاً في عالم الإسلام أشبه بسيطرة اللاهوت وطفيلانه عليها في الغرب قبل الثورة على الكنيسة. ويرجع هذا التناقض إلى اختلاف ما بين السلطة والدين في الغرب المسيحي عنها في الشرق الإسلامي فلم يعرف الشرق الإسلامي ما عرفه الغرب المسيحي من ازدواج السلطة وتناثرتها، ولم يكن ازدواج السلطة في عالم المسيحية الغربي إلاّ عارضاً عليها ليس هناك ما ينص عليه من تعاليم المسيحية الأولى فالماثور عن المسيح أنه قال: «أترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وإمّا كان نتيجة ظروف تاريخية حين حملت الكنيسة الغربية مسئولية عالم فسيح انهارت فيه سلطة الدولة أمام غارات الجرمان المتبريرين، فالباپاوات وليس الأباطرة هم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية في إيطاليا وهم الذين حوّلوا روما من عادية للمباردين وسرعان ما آلت إلى الكنيسة السلطة الزمنية بجانب سلطتها الدينية، فصاغت الحياة على هواها طوال العصر الوسيط وكان المسيحيون الأوائل قد صهرتهم مثالية المسيحية في بوتقة الاستشهاد طوال قرنين سابقين على اعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية فاستعذبوا الزهد والتبتل وأيقنوا أن الحياة الدنيا ليست إلاّ متاع الغرور وآمنوا برجعة المسيح رجعى قريبة «ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً». فأهلوا الدنيا ولاذوا بالآخرة ولم تجد الكنيسة عناء في فرض لا هويتها على عقول الناس وأفكارهم بينما أخذ رجالها إلى جانب عملهم الديني يدبرون شئون الدولة فهم وحدهم الذين يعرفون القراءة والكتابة واللغة اللاتينية وهم وحدهم من يعرفون حساب الأيام والشهور لضبط الأعياد الدينية ومواقفيتها فجذبت إليها بعد زوال الوظائف الإمبراطورية من البلاد وأصحاب الثروة والنفوذ من وجدوا في المناصب الكنسية فرصة لإشباع رغبتهم في الإدارة والتمتع بالمكانة التي آلت إلى رجال الدين وأصبح عسيراً على الكنيسة أن تحتفظ بتقائها الأول فغدت مباءة للمفاسد مما يقصه «جريجورى التورى» في كتابه «تاريخ الفرنجة».

لذلك كانت الثورة على الكنيسة ثورة على اللاهوت الكنسى وثورة على مفاسد رجال

الدين دون الدين ذاته ولم يتهاو سلطان الدين إلا تحت سلطان العلم، فحين اتجه العقل الأوربي إلى العلمية أنكر اللاهوت وأحل محله القانون الطبيعي وحين اتجهت الملكيات الناشئة إلى الاستئثار بالسلطة أنكرت على البابا سلطانه الزماني وردت الحق الإلهي في الحكم إليها دونه وحين ثار التجار بالاقطاع وأمراؤه ثاروا بالكنيسة التي تفرض حمايتها عليهم وعلى الإمبراطور الذي يستمد سلطته منها وانتهت الثورة أو السخط على الكنيسة بالعقلين - في أغلب الأحيان - إلى الاتحاد وإنكار الدين كما انتهت بالفكر إلى العلمانية والتحرر من الدين.

وقد نشأت الكنيسة المسيحية في رحاب الدولة وورثت وظائفها بعد انهيارها وتأثرت بها قبل أن ترث مسئولياتها وتأثرت بهذه المسئوليات بعد أن ورثتها. أما الإسلام فقد نشأ - كما قلنا - بعيداً عن الدولة في مجتمع كان خلواً من سلطانها فلم يتأثر بها فتكونت لجماعة الإسلامية في غيبة الدولة. فلما تكونت الدولة كان الفصل تاماً بين الاثنين وظلّ الدين بعيداً عن التأثير بالسلطة ولم تكن السلطة فيما يتصل بأحكام الشرع إلا أداة تنفيذية، تنفذ أحكام القاضي ولا تتدخل في تشريع القضاء، وظلت مدارس الفقه والفلسفة بمنأى عن سلطة الدولة تتمتع بحرية كاملة لا سلطان لأحد عليها وإن بقيت الدولة قائمة على التوفيق بينها وبين الدين، أو بمعنى آخر ممثلة لوجدان الجماعة أو ضميرها الاجتماعي.

ولم يكن في الإسلام ما ينكر التأمل والعقل والتفكير العلمي فقد كانت هذه جميعاً أساساً للدعوة الإسلامية في بعثها، وهي التي جذبت المسلمين الأوائل إلى اعتناق الإسلام وما زالت تجذب الناس إلى الإسلام في كل العصور مما يبدو الآن في إقبال الأفريقيين على الإسلام دون المسيحية ولا سيما عندما تلتقي الدعوتان على أديم واحد.

فلما ارتد المسلمون عن التأمل والتفكير العلمي وأنكروا العقل وغلوا في الجمود ارتد الإسلام إلى ما يشبه لاهوتية المسيحية في العصور الوسطى وتردّت الدولة بمثل ما تردى الناس في الجهل ففسدت الدولة كما فسد الناس، وكان فساد الدولة من فساد الناس وجهلهم بسمو العقيدة التي يدنون بها، وكان انحطاط المجتمع الإسلامي وليد هذا الجهل الذي ران على عقول المسلمين في وقت أخذت أوربا تنفض فيه غبار الجهل وتحرر من الخرافة لتعلم من شأن العلم.

فالدين ولا سيما الدين الإسلامي لا يناقض العقل ولا يحول دون سلطان العلم، فقد أصبح الدين فضلاً عن كونه علاقة تعبدية ظاهرة اجتماعية ترسب العقيدة فيه وتوارى في العقل الباطن للفرد وفي الضمير الاجتماعي للأمة لتكون السلوك العام والوجدان المشترك

للجماعة الإنسانية فإذا ثارت الجماعة بالدين أو خرجت منه فلأن العقيدة لم تعد تتلاءم مع الضمير الاجتماعي وفي أغلب الأحيان لا تبلغ الثورة بالدين الخروج منه والكفر به، بل يقف مداها عند تطوير التعاليم الدينية وهو ما حدث في حركة إصلاح المسيحية فلم تكن البروتستنتية غير حركة تطوير لتعاليم الكاثوليكية الجامدة وثمة ظاهرة جديدة يقول روبرت بالمر أستاذ التاريخ الحديث بجامعة برنستون الأمريكية إنها توشك « أن تفجأ أية حضارة من الحضارات على غرة منها، وهي ظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية » ويرتب على ذلك ما يراه من نظرة الصينيين إلى تعاليم كونفوشيوس التي تقادم عليها العهد على أساس جديد يتفق واتجاه العصر، وما يراه من محاولة الهنود في تكوين مجتمع جديد متحرر من العادات الهندية القديمة خال من الانقسام التاريخي بين الهندوس والمسلمين. ويقول: « إن الشعوب لا ترفض غالباً أديان أسلافها، ولكنها تحاول أن تقوّيها وتطورها وتجعلها عصرية لتبعث منها مجالاً لمصالح جديدة غير دينية » فلا يكون الدين أصل كل شيء وإنما ليكون شيئاً من بين الأشياء العديدة في حياة الإنسان وهذا ما انتهت إليه الديانة المسيحية ففي سنة ١٣٠٠ - كما يقول - « كانت أوروبا مجتمعاً دينياً خالصاً وكانت طبقة الإكليروس وحدها صاحبة الجاه والنعم بين الطبقات الأخرى غارقة في الدين لا تنعم بغيره، وبعد ثلاثة قرون أصبح الدين اهتماماً معيناً بين عدة اهتمامات كثيرة ولكن العقيدة المسيحية بقيت صامدة رغم انقسام الكنيسة على نفسها فتطهرت وتقوّت على يد كل من الفريقين ممن أصبحوا بروتستانتين ومن ظلوا كاثوليكين وإن شغلت الاهتمامات الأخرى الناس بأشياء مماثلة مما يتعلق بمصالحهم، فكانت الحكومة والقانون والفلسفة والعلوم والفنون والمصالح الاقتصادية والمادية في سيرها لا تحفل بالقيم المسيحية وتقبل الناس ما تعنيه السلطة والنظام والجمال والفن والمعرفة والسيطرة على الطبيعة بدافع من الرغبة الكامنة في نفوسهم وهذه المرحلة هي مرحلة الانتقال إلى الدنيويات التي تشيع الوحدة على التاريخ المعقد ».

إلا أن ظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية كما يعنيها بالمر ويعنيها غيره من مفكرى الغرب - في صور أخرى - وإن استقامت مع الفكر الغربي وعلاقته التاريخية بالمسيحية، وإن بدا أنها تستقيم أيضاً بالنسبة للكونفوشية والهندوكية في علاقتهما بالحضارة الحديثة فإنها لا تستقيم بالنسبة للفكر الإسلامي وعلاقته بالحضارة، فالإسلام لم يربط بين الدين والدولة ولم يدع لأى منها تأثيراً على الآخر، وهو إن صاغ وجدان المسلمين وأمدّهم بفيض زاخر من القوى الروحية العظيمة فإنه لم يجبر على العقل ولم يكن عائقاً دون التقدم العلمي فاستطاع أن يوائم بين العقيدة والحضارة وبين الدين والدولة وبين العقل والوجدان.

فالدين قوة وجدانية تمدّ الإنسان بالأمل والرجاء ما استقامت مع العقل وأضفت على الحياة من الحق والخير والجمال ما يضيف على الحياة كل بهجة ورواء فليس الدين غلاً يقيّد به الله إرادة الإنسان إلّا فيها يسىء به الإنسان إلى نفسه وإلى غيره وليس فيه ما يعوق الإنسان عن التمتع بطيبات ما أحلّ الله فإذا انقلب غلاً في عنق الإنسان وقيداً على العقل وعائقاً دون الاستمتاع بالحياة أدى إلى الحيرة بين ما هو ديني وما هو من موحيات العقل وإلى التمزق الفكري بين ما كان وما يجب أن يكون أو بين ما يقوله الدين وما يقونه العلم ولا خلاص للإنسان من الحيرة والتمزق الفكري ما لم يوفق بين الدين والحياة وبين الدين والعلم لتستقيم الحضارة مع هدى الدين أو يرفض الدين ويؤثر عليه العلم قوامة لحياته وحضارته.

فلما بدأ العلم الطبيعي بدافع الحاجة إلى إشباع مطالب التقدم - كما هو دائماً - لم ينشأ في فراغ وإنما أشبع نهمه إلى المعرفة العلمية مما اغترف من علوم العرب ومن علوم مدرسة الإسكندرية القديمة وغزت المعرفة العلمية الجديدة بالعلماء إلى آفاق التجريب والتثبت بالعلوم الطبيعية والرياضية وحملت التجار وأرباب الأعمال إلى تسخير منجزات العلم لخدمة مطالبهم النامية إلّا أن العلم الطبيعي سار في طريق بعيدا عن الدين، إذ لم يجد منه ولا من رجاله عوناً له على التفتح والانطلاق وحملت الكنيسة الدين أكثر مما حمل الدين نفسه من جفوة للعلم، فإن سلطانها الغاشم على الدين وتأويلها له واحتكارها تفسيره وما كان لعقيدة الخلاص عن طريق القسيس من تسلط على نفوس الناس، قد ربط ما بين الدين ورجال الدين في أذهان العامة، فلما اكتشفوا ما عليه رجل الدين من فساد أتهار ما في نفوسهم من توقيف الدين، والعلم الكنسي، وإن بقيت إشعاعة ضئيلة من روحية المسيحية تربطهم به، وأما العلماء والمفكرون فلم يجدوا في تعاليم المسيحية بعد أن خضعت لتفسيرات الاكليروس ما يتفق وتفكيرهم العلمي فهجروها وكانت ظاهرة الإلحاد والمروق أكثر شيوعاً بينهم منها بين العامة، ولعل مما يباعد بين المسيحية والعلم أنها قامت على المعجزة فلم يخاطب عيسى الناس عن طريق العقل كما كان محمد في دعوته وإنما اتجه إليهم بالمعجزة دون المنطق والبرهان العقلي ولم يكن العقل الإنساني قد بلغ درجة من النضج ليستطيع أن يدرك بها حقيقة الوجود العليا فأثار عواطف الناس دون عقولهم ورسم لهم طريق المحبة والمغفرة والرحمة دون تشريع يقيم قواعدها فاقترن الإيمان بالغيبيات واقتربت الفضائل بالتجريد ثم غذتها الفلسفات المعاصرة بما يعوزها من يقين وما ينقصها من مراسم فضلاً عن التشريعات الكنسية التي مزجت بين الدين والدولة وقامت بالوساطة بين العبد والخالق وكان من التناقض بين الفضائل التجريدية وبين واقع الحياة ما أوقع الغربيين بين الإيمان المجرد

والإلحاد العقلى وانتهى إلى هذا الواقع الذى يعانىة الغرب المسيحى فى موقفه من الدين والعلم ومن الدين والدولة حين فصلت بينهما فصلاً تاماً، فلا سبيل للمواءمة بين الدين والعلم ولا سبيل للتوفيق بين الدين والدولة فكانت الإباحة فى العقيدة دون الإباحة فى الخلق.

ثم إن المسيحية استقبلت حضارةً وثنية كانت فى طريقها إلى الانهيار وقامت فى دولة بلغت ذروتها من المجد الإمبراطورى ثم عرتها عوامل الانحلال التى تعترى الدول فى شيخوختها فلم تجد غذاءها من الحيوية التى تدفع المثل العليا إلى التفتح والإنطلاق، ولم تجد من مجد الدولة وقوتها ما يمدها بالقدرة على التجديد ثم انتهت إليها أمور الدولة بعد أن انتهت الإمبراطورية فى الغرب فحلّ البابوات محلّ الأباطرة بعد أن آلت زعامة المسيحية إلى أسقف روما وانتهت إليه سلطة الأساقفة المحليين، وغدت الزعامة الجديدة سمة على وحدة العالم المسيحى ووحدة الكنيسة ولم تغير الكنيسة من التنظيم الإمبراطورى وجعلته مثلاً لتنظيمها ومزجت بين الدين والدولة كما كانت الإمبراطورية وتردّت فيما تردّت فيه من أوتوقراطية وفساد ولم تكن الثورة على السلطان الكنسى ثورة على الكنيسة فحسب وإنما كانت ثورة على المسيحية وعلى الأخلاق الدينية وهو ما يعبر عنه برتراند رسل بقوله: «لا مناص لنا من اطراح الكثير مما تعودنا أن نرذّه إلى الدين، إذا عَنّ لنا أن نبتدع اتجاهًا دينيًا جديدًا للحياة والعالم. نأخذ من جديد بعقول الأحرار رجالاً ونساءً ونحى مشاعرهم وأعظم ما ننشده من تغيير هو إقامة بناء أخلاقى فعال يسمو به الأمل ولا يتدنّى به الخنوع أو يرتكس به الخوف، نحضّ على ما يجب أن نقوم به من أعمال ولا نقف عند النهى عما لا يصح أن نقوم به فلم يخلق الإنسان لكى يكون دوره فى الحياة أن يتسلل منها ليتجنب الغضب الإلهى فالدنيا هى دنيانا وعلينا وحدنا أن نحيلها فردوساً أو نجعلها جحيماً، بما يلزم ذلك من قوّة هى قوتنا فالمجد والملكوت هما مجدنا وملكوتنا إذ كنا نملك الشجاعة وبعد النظر لاصطناعها فليست الحياة الدنيا التى نبغيها وقاراً عارضاً أو حرماناً خرافية ولن تكون حياة حزن أو زهادة ولن تحفل بمبادئ الأخلاق إلّا بقدر، وإنما حياة تستلهم زاد الإنسانية فتسعد ببهجة الإنشاء مستروحة أنفاسها فى عالم حرّ فسيح يقوم على البناء والأمل وعلى أساس ما ينبغى من محبة الناس لا لمظهرهم الخلاب ولكن لما يتوسمه الفكر فيها يمكن أن يند عنهم من خير كامن فيهم».

فظاهرة الانطلاق من قاعدة الحضارة الدينية لا تعنى أكثر من خلق بديل للدين وهو ما عناه رسل بقوله ذاك فالدين لا يمكن أن يكون اهتماماً خاصاً فحسب وإنما هو ظاهرة

اجتماعية تصوغ الأخلاق والسلوك وتبدع القيم التي تثرى حياة الإنسان بالنها والخير والأمل والجذاب والتطلع الحر لحياة إنسانية أسعد وأهناً.

وحين ينكر الإنسان الدين أو يتنكر له مجتمعات من المجتمعات فلا بد أن يقيم لنفسه عقيدة جديدة هي البديل الطبيعي للدين القديم وعادة ما يكون للعقيدة الجديدة من القوة ما كان للعقيدة القديمة. إن لم تكن أكثر ضراوة حين تفرضها السلطة أو يفرضها المجتمع، فلا يكون للرأى الحرّ أو للنقد معها سبيل، وهي الظاهرة التي نلمسها عند الشيوعيين أو نراها في المجتمعات الشيوعية التي نبذت الدين وأقامت ديناً جديداً تركز به وتبدع له المراسم والطقوس. فأحلت الطبيعة محل الله واتخذت من البيان الشيوعي إنجيلاً جديداً وزاوجت بين العقيدة والسلطة كما كانتا في البابوية، ورفعت لينين إلى مقام النبوة، وأحاطته بكل ما للقديسين والأنبياء من مراسم القداسة، وجعلت قبره مزاراً يحج إليه الشيوعيون ويطوفون بجسده المسجى محنطاً مكشوفاً للزائرين ولا يسمح لأى زائر ولو لم يكن شيوعياً بأن يلج ضريحه مرتدياً القبعة أو القفاز، وقد قرأنا منذ سنوات خبر صحفي بلغارى أبى إلا أن يذهب راجلاً من بلده لزيارة قبره في العيد المئوى لمولده. وهو ما كان يفعله الحجاج من المسلمين أو المسيحيين حين لم تكن هناك وسائل المواصلات الحاضرة وكانوا يؤثرون الترجل على الركوب. ويجدون في مشقة الرحيل اكتساباً لمزيد من الثواب، ويقتبس الشيوعيون أقواله ويستشهدون بها ويفسرها المجتهدون كما تقتبس أقوال الأنبياء والرسل ونستشهد بها ونفسرها وتحتل صورته وتماثله مكان الأيقونات في كل دار ومنندى ومقر حكومى، وتزدان الأبنية والحدائق بالمآثور من أقواله المنقوشة على ألواح أو أقمشة حمراء كما تنقش آيات القرآن على جدر المساجد أو مواظ الرسل في كنائس القديسين.

وتدعى الشيوعية نفس دعوى الأديان من حيث صلاحيتها لكل زمان ومكان، ولها كما للأديان تفسيرها للكون والوجود، ولها قانونها الأخلاقى المستمد من مبادئها، وتبشر بعقيدها بنفس القوة والحماس والإخلاص في الديانات القديمة، ولا يقبل دعائها نقاشاً فيها، إلا أن يكون لهم الرأى الأعلى فيما يقولون، وتصر على صلاح الجسد إصرار المسيحية على صلاح الروح، وتنكر كل عقيدة سواها إنكار الأديان السماوية أى نزعة للوثنية أو الإلحاد أو الشرك. وتجرى المادية العارمة فيها مجرى الروحية في المسيحية، فتقع فيها وقعت فيه المسيحية من فصل بين الروح والمادة، وتقيم مملكة الأرض كما أقامت المسيحية مملكة السماء.

وهكذا نبذت المجتمعات الشيوعية الدين لتجد نفسها دون وعى منها، وهي تركز بعقيدة جديدة تغلفها بكل ما أنكرته من الديانات القديمة فالدين وإن كان حياً إلهياً ظاهرة -

بقدر ماهى اجتماعية - فهى أيضاً ظاهرة نفسية. وهو كظاهرة اجتماعية يمد المجتمع بالتوافق والانسجام الطبيعيين ويلهمه النظام الممثل في القانون والمائل في الدولة وكظاهرة نفسية يصوغ وجدان الأمة ويلهم ضميرها الاجتماعى. ويخلق الاتساق والتماثل في الإرادة العامة. فالدين هو القوة الكبرى التى تحرك الحياة الاجتماعية، والتغير الجوهري في المجتمع، يرتبط بالتغير الذى يطرأ على العقائد والمثل الدينية، وتخطئ الماركسية حين ترى أن التطور في وسائل الإنتاج والمبادلة يكمن وراء التغير الاجتماعى والثورات السياسية، وليست النفس الإنسانية أو المعرفة المتزايدة بمبادئ الحق والعدل، فتفرض ماديتها على الجماعة ما يسلب الحيوية من الفرد، فليس في نبذ الدين ما يدل على التقدم كما يدل على التحلل الاجتماعى الذى تظهر آثاره بعد أن تتراجع موجة الاحاد، وتحاول البلاد التى نبذت الدين أن تلم شعنها وأن تبحث لنفسها عن ملجأ أمين وما من محاولة تبذل لتوحيد القيم الإنسانية وصب الحياة في قوالب جامدة محدودة لا تقوم على أساس من طبيعة الإنسان إلا وكانت سبباً في فساد الدولة وسقوطها. فالمادية تعوق العقل وتضم الذوق والأخلاق والعادات بالوحشية وتلقى سدوف الظلمة على طريق الخلاص ولم يشهد الإسلام مثل هذه الثورة على تعاليمه، ولم تكن اليقظة الإسلامية التى بدأها الإمام محمد بن عبد الوهاب وتطورت على يد الإمام محمد عبده إلا إحياء للقيم والتعاليم الإسلامية الأولى. لا قضاء عليها أو إهداراً لها أو خروجا عليها كما كانت حركة الإصلاح المسيحى للكاثوليكية فليس الإسلام بحاجة إلى إعادة النظر فهو متجدد على الدوام قابل للتطور، متلائم مع كل زمان ومكان، لا ينكر الدولة وإن جردها من السلطان على العقيدة، ولا يضيق بالفن والجمال والغنى، يعنى بالعلم ويحض عليه ويدفع إلى النظر والتأمل والكشف عن أسرار الكون، ويدعو إلى تسخير الطبيعة لصالح الإنسان، وينظم المصالح المادية والاقتصادية والعلاقات الاجتماعية بصورة لم يصل إليها العالم بعد، ولم تدم في تاريخه غير ثلاثين عاماً قصاراً ولعله إذ يصل إليها ويعيها قد يتمكن من حل مشاكله والقضاء على أزمائه، ليعيش الناس في سلام دائم وأخوة صافية على أساس من توقيير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية .

إيمان العصر :

ومن الحق ألا نغالى أو نبالغ في تقدير ما نسميه انصرافاً عن الدين أو إهمالاً لشأنه فما كان الناس في عصر الإيمان أكثر صدقاً في عقيدتهم منهم اليوم، وإن أصبحوا اليوم أكثر تحوراً من ضغط الدين وأقل خضوعاً له عما كانوا في الماضى بعد أن فقدت الكنيسة قدرتها على القهر والإرغام ولئن أدت المعرفة العلمية إلى الانتقاص من قدر الدين وتقويض الإيمان

الدينى فقد أدت بالتالى إلى قيام محاولات للتوفيق بين الدين والعلم إلا أنها لم تجد فى اللاهوت المسيحى ما يعزز المصالح الدنيوية أو يبررها وبدا فى وقت من الأوقات أن الطبيعة البشرية التى كانت تعبر عن ذاتها فى التحرر الروحى الخالص قد أخذت تفصح عن نفسها فى قدرة الإنسان على الخلق والإبداع وتوجه إلى نوع من المثل الأخلاقية والاجتماعية ترى فيها إشباعاً لحيويتها ومطالبها الدنيوية وكان التعويض عن هذا الفشل هو اعتبار الدين مسألة شخصية ولئن فقد بهذا جانبه الاجتماعى فى تكيف المجتمع باندماج الجانبين الشخصى والاجتماعى فقد ظفر بالنظرة الواعية المتحررة التى لا تجد للإنسان غناءً عن الدين وإن تركت له عقيدته يصوغها كما يشاء وإيمانه بكيفية وفق ما يريد فكانت المحاولات الدأبة لتحرير المسيحية من طقوسها وأسرارها ومن سيطرة رجال الكهنوت المحترفين فبعد أن كان اللاهوت يشد الناس إلى أقانيم وعبادات وطقوس لا يجدون لها تبريراً فى عقولهم أخذوا يبحثون عن الله فى وحدة الكون وفى العالم ووقائعه ولم يعد القانون الطبيعى إلا تعبيراً عن إرادة الله العليا فإن ما بالكون من الاتساق والنظام هو دليل على وجود صانعه الأعظم فإذا كنا نرى الله فى وحدة الكون واتساقه فإننا نرفض الثنائية والازدواج فيها هو طبيعى وما هو من خوارق الطبيعة مما يعد شرطاً أساسياً لنمو العلم واتساقه مع الدين ولئن أعترف الفكر المسيحى واليهودى بالمعجزات والخوارق مما يعد خروجاً على القانون الطبيعى وإن أضغى على العقيدة من الحماس والغيرة ما يؤدى إلى ذلك الإيمان التقليدى الذى ينكره العلم فقد جاء الإسلام مبشراً بوحداية خالصة لا ترقى إليها ديانة أخرى ومؤكدًا لوحدة الكون واتساقه وفقاً لقانون أزلى لا يتغير ولا يتبدل فحرر الدين من الحماس العاطفى وأخضعه لمقررات العقل ولم يلجأ إلى المعجزات والخوارق فى إثبات رسالته وقضى على الحد الفاصل بين ما هو طبيعى وما هو خوارق الطبيعة وأكد وحدة الكون فى اتساق قانونه الأزلى فحين ظن المسلمون أن الشمس انكسفت لموت إبراهيم قام محمد إليهم يقول: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفن لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

ويؤدى الإيمان باتساق الطبيعة ووحدة القانون الطبيعى إلى تقدم العلم وغوه حيث لا توجد علة بغير معلول أو خارقة لا يقبلها العقل لشذوذها عما تجرى عليه سنة الكون منذ الأزل وهى سنة يؤكد الإسلام ثباتها واستمرارها وأنها لا تخضع لتغيير أو تبديل فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً وهى سنة تجرى على ما نعلم من هذا الكون الفسيح وما لا نعلم بعد حيث نفترض فى القانون العلمى أنه يسرى على كل ما يقع تحت الملاحظة أو يغيب عنها إلا أن الإيمان باتساق الطبيعة وإن أدى إلى الإيمان بوحداية الله فإنه

لا يكفي لصحة القانون العلمى الذى يقوم على التجريب والاستقراء وهو ما كان من فرق بين الإيمان العقلى للقرن السابع عشر والإيمان بالعلم فى القرن التاسع عشر وما بعده فالتفكير العقلى استنباطى يقوم على التأمل والتفكير العلمى استقرائى يقوم على التجريب، لذلك كان الاهتمام بالجزئى أساساً لتحقيق الكلّ وإثبات صحة كل قانون عام وهو الذى أدى إلى تقدم العلم حين تودى ملاحظة جزئيات عديدة إلى نظرية عامة فإذا هوّ العقل فى أجواء فسيحة من التأمل والاستنباط فإن التجريب يشدّه إلى الأرض وينقله من النظر فى الحقائق العليا إلى تدبر المجد الدنيوى مما يؤدى إلى تحطيم الحواجز بين ما هو دنى وما هو دنيوى وإزالة الفروق بين جوانب الحياة وهو القاعدة التى يقوم عليها جوهر الإسلام.

إلا أن المجتمع الإسلامى قد أصابه من طغيان الجهل ما أصاب العالم المسيحى من طغيان رجال الدين وفى الوقت الذى أفلت فيه الحضارة الإسلامية فى الشرق وفى الأندلس كانت أوروبا تنفض عنها وقر العصور الوسطى وتنفض معه كل ما يربطها به فكانت ثورتها على الدين بعض ما اتسم به تحررها من الماضى وأثقاله الفكرية والعقلية حين لا ذوا بالعقل فلما انتهى العقل بهم إلى العجز عن إدراك حقيقة الوجود هجروه إلى الإيمان بالعلم الذى يهديهم إلى الواقع ويكشف لهم عن السرفيا تقع عليه أبصارهم. إلا أن ما عجز عنه العقل قد عجز عنه العلم بدوره حين أدرك الإنسان أن العلم يرغم انتصاراته الباهرة مازال عاجزاً عن إدراك حقيقة الوجود فلم يحمل الناس على اليقين المطلق بقدرته ولم يحملهم على الإيمان المطلق بالدين وإنما حملهم على الشك الذى يضرب بهم فى آفاق شتى من التمزق بين النقيضين وهو ما انتهى إليه موقف الدين فى حضارة العصر وهى حضارة أوربية من حيث جذورها الدينية والفلسفية والعلمية ومن حيث حاضرها القائم الذى يمتد إلى كافة أرجاء الأرض بما لم تمتد إليه حضارة من قبل بكل صوره وآثاره.

ولعل هذا الامتداد بكل صوره وآثاره لا يمثل امتداداً عضوياً أو فكرياً متسقاً بقدر ما يمثل امتداداً عضوياً وفكرياً متصارعاً يمزق فيه الإنسان الإنسان وتمزق فيه الفكرة الفكرة، وفى حمأة هذا الصراع الذى لا يمثل نمو الحضارة بقدر ما يمثل انهيارها يسخر العلم للقتل بحجة الارتقاء ويسخر الفكر لتشويه الحياة بحجة الحق والإنصاف.

فهل كان هذا الصراع نتيجةً لانهيار الدين وعصمته فى نفوس الناس أم كان للخواء الروحى الناجم عن انهيار الدين؟..

يرى البعض أن هذا الصراع - ومنهم برتراند رسل - جزء من طبيعة الإنسان فالكرهية والمحبة مما ركب فى النفس الإنسانية منذ القدم فالناس إما أصدقاء تربط بينهم

رابطة أخلاقية هي التعاون وإما أعداء يفرق بينهم التنافس ولكن هذا التقسيم يعتريه التغير الدائم فقد يمقت الرجل منافسه في العمل ثم لا يلبث أن يشعر نحوه بشعور من الأخاء « أمام تهديد من جانب الاشتراكية أو خطر الغزو الخارجي » وقد نكره جارنا إبان السلم وتتحول إلى محبته حين يهددنا معه خطر الحرب وقبلما يشعر الناس بالألفة نحو جلسائهم في السيارات العامة، فإذا أهدقت بهم غارة جوية سرت الألفة بينهم فالحياة كما يقول - تفقد معناها إذا لم تجد عدواً تكرهه. فإذا أردنا أن نوحّد البشرية فعليها أن تغير « هذه الوحشية اللاشعورية البدائية » بدعم سلطان القانون ثم توجيه الفريضة توجيهها بريثاً يقضى على وحشيتها.

وتعني عقيدة الخلاص في المسيحية تورط الإنسان في الخطيئة التي جاء المسيح ليكفر عنها كما تعني عقيدة « ملكوت السموات » تطهيراً كاملاً للحياة من أرجاسها وأدرانها في ظل المحبة الإلهية التي يتحد بها الناس جميعاً في الملكوت فهي تسلم أن الشر والخطيئة مما ركب في طبيعة الإنسان، وبقدر ما تحرر الطبيعة البشرية من رجس الشر والخطيئة بقدر ما يتجدد البناء الروحي وسلام الإنسان فإن ما أعلنه المسيح لم يكن - كما يقول ويلز - « مجرد ثورة أخلاقية أو اجتماعية بل إن الشواهد العديدة لتدل على أنها تتضمن لمسة سياسية بسيطة غاية البساطة فحيثما قامت مملكته في قلوب الناس فإن العالم الخارجي يتجدد ويتغير بقدر ما لها في نفوسهم من مكانة ».

ومهما يكن جوهر الخلاص وأصل الخطيئة في العقيدة المسيحية فإنه لما يؤكد نطواء النفس الإنسانية على الخير والشر معاً والتكفير عن الشر بالزهد والتبتل وسيلة للخلاص من شر النفس وإقامة بناء روحي للخير.

ويقوم جوهر الهداية في العقيدة الإسلامية على نبذ الشر وإعلاء الخير في قوله تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات)^(١).

(ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات)^(٢) .
فالصراع بين الشر والخير ظاهرة لوجود هذين النقيضين في النفس البشرية وانعكاسها على حياة المجتمع وسعى الإنسان الدائب كسعى الدين والمذاهب الأخلاقية لمقاومة نزعات الشر وتغليب الخير على الشر لإقامة مجتمع آمن مطمئن يقمع نزعات الشر هو مجتمع الخير وهو ما يبتغيه المجتمع من إقامة الدولة التي تحقق الخير للمجتمع.
وقام الدين برسائله السامية لاجتثاث الشر من نفوس الناس وبناء حياة أفضل

للمجتمع الإنساني يغلب الخير فيها الشر بالترغيب والترهيب وإقامة حدود فاصلة للعقاب والثواب في الدنيا وفي الآخرة، وكان للوازع الديني أثره في كبت غرائز الشر، وهو الوازع الذي يقوم على خشية الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور فمهما تخفى الإنسان واستتر فإن عين الله ساهرة ترقبه وتحصى حسناته وسيئاته، فإذا زال الوازع الديني لم يكن للإنسان من وازع غير القانون الوضعي وهو قاصر عن معرفة النوايا وخلجات النفوس. والدين أخلاقى في جوهره ولكن الوازع الذي يقف بالمثل الأخلاقية على رقابة الضمير وحده ينكر نوازع الشر والخير وحب المنفعة عند الإنسان فيبدو مثالية سامية لا وجود لها في الحقيقة، بينما يقوم الوازع الديني على الإيمان بالله والخوف من عقابه والأمل في ثوابه فإذا سما الإيمان إلى الفناء في الذات الإلهية كانت محبة الله أعظم وازع للنفس وهو وازع يسمو على قانون الأخلاق ووازع الضمير وبه تتجلى مرضاة الله في سلوك الإنسان وفي أعماله وهو الإيمان الذي يعبر عنه «ماتيو ارنولد» بقوله: «الإيمان بذلك الشيء الذي هو غير ذواتنا والذي يعمل من أجل الخير» والذي يراه هرمان راندال في أننا «في جهادنا مع المسيح لتحقيق العدالة والمحبة نعرف الله حقيقة ويصبح الدين نوعاً من الشوق الأخلاقى أو الإرادة الإلهية ولا يعيننا ما تشيره هذه الإرادة في علاقتها بالطبيعة من معضلات بالقياس إلى الحقيقة الأولية في أنها تتفاعل وتتواءم مع أهداف الإنسان الاجتماعية». لكن الدين وقد تجرد من عنصر الإيمان «ذلك الشيء الذي هو غير ذواتنا والذي يعمل من أجل الخير» لم يفقد الوازع الإلهي في عالم الحس والضمير فحسب وإغا فقد القدرة على إعادة بناء الحياة بما يتفق والأساس التكنولوجي والاجتماعي الذي تقوم عليه حضارة العصر حين عجزت المسيحية عن خلق التوافق والانسجام بين المثل الأخلاقية القديمة وبين حضارة العصر بمثلها الاجتماعية والصناعية.

ويقدر ما زلزل العلم من أركان الدين، فإنه لم يقوض - على الأقل - الإيمان الديني والمثل الدينية في نفس الإنسان العادى فإن المعرفة العلمية لا تبدو في نظره متناقضة مع إيمانه الديني ولا يهيم رجل العلم في كثير أو قليل أن يبحث صلة الدين بالعلم ولا يعنيه أن يقوم الدين شاهداً على صحة القانون العلمى ولعله لم يفكر في هذه الصلة ما فكر فيها رجل اللاهوت حين رأى في القانون العلمى ما يقوض عالمه الفكرى فلم يحاول أن يراجع تفسيره لدلولات الكتاب المقدس وظن أن منصبه الجليل بما يضيفى عليه من توقيير في نفوس العامة يوشك أن ينحطم أمام الحقائق العلمية الجديدة فكان موقفه دفاعاً عن الذات أكثر مما هو دفاع عن الإيمان وصحة العقيدة مما لم يعن به الرجل العادى. ولكن انهيار الدين وتقويض أركانه في نفوس العامة جاء مباشراً وصريحاً بنشوء مذاهب

اجتماعية جديدة وصمت الدين بالرجعية وأنه «أفيون الشعب» فناصبته العداء ونسبت إليه كل تأخر في الوقت الذي عجز فيه رجال الدين عن تبرير العقيدة في نظر العلم الحديث فكان هذا العجز بدوره أداة فعالة لتقويض الدين عندما اتخذوه ذريعة لاتهم الدين ودليلاً عن خرافته ولادوا بالمادية يركزون بها ويدعون لها العصمة والجلال وكانت مأساة الحضارة الحديثة في عجزها عن خلق التوافق والانسجام بين الدين والحياة أكثر مما كان من عجزها عن التوفيق بين العلم والإيمان.

ذلك موقف الحضارة الأوروبية - وهي حضارة العصر - من الدين والحياة تمزقت فيها المسيحية بين الشك والإلحاد والإنكار فمن مستريب يأخذ الشرك بنفسه فلا يهتدى إلى يقين وملحد لا يرى للدين سنداً من العلم، ومنكر يرى في الدين خدعة كبرى لتبرير العبودية قديماً والاستغلال الرأسمالي حديثاً فهو أفيون الشعوب يخدر عقلها ويخدعها عن إدراك حقيقتها.

الإسلام والعلم :

الإسلام لا ينكر العلم. وفي الحديث «اطلبوا العلم ولو في الصين» ما يعنى المعاناة في طلب العلم ولا يعنى العلم الدينى فليس في الصين ما يطلبه المسلمون للتفقه في الدين وإنما يعنى العلم الطبيعى كما هو معروف ولم يؤخذ على فقهاء الإسلام ضيق بالعلم ولا يعرف عن الدولة الإسلامية أنها اضطهدت العلماء أو وقفت من العلم موقفاً إداً، وقرر الإسلام حرية العقيدة وحين قرر الإسلام حرية العقيدة إيماناً وكفراً فقد قرر بالتالى حرية البحث العلمى في قوله تعالى :

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم^(١)).
وفي قوله جل شأنه :

(وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر^(٢)).
وكان للعلماء من أصحاب الملل الأخرى ما كان لعلماء المسلمين من منزله رفيعة ومكانة عالية في المجتمع الإسلامى وعند الخلفاء ومما ينسب إلى المأمون قوله «إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النساطرة ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين».

وقد قرأ المسلمون أرسطو قبل أن يقرأه الغرب المسيحي ومن العرب انتقلت جذوة الحماس للفلسفة اليونانية إلى أوروبا في عصر النهضة.

ولا يقف الإسلام ضدّ التقدم الاجتماعي ولم يعرف عنه أنه اتخذ جانب السلطة ضدّ الفقراء والكادحين بل كان عوناً لهم على حقوقهم فأنصفهم قبل أن ينصفوا أنفسهم ومن القضاة من وقف في الحقّ لضعيف ضدّ الخليفة نفسه وأنكر الإسلام الطبقة حين نبذ القبيلة والعنصرية والتفاخر بالأنساب والأحساب والجاه وسعة الرزق وإن لم ينكر التفاوت في المآثر وفي التميز العقلي والخلقي وسوى بين الناس جميعاً في أخوة إسلامية جامعة ونبذ القبيلة والشعوبية وقال بالدولة العالمية التي تسود فيها شريعة الحق، وقوّض تراكم رأس المال والملكية الخاصة بما قرره من أحكامها وسدّد ضربة قاضية للرق فلم يكن من اليسير في عالم تغفل الاسترقاق في كيانه تحرير الأرقاء تحريراً كاملاً، ولكن الإسلام وضع السنن لتحرير الرقيق والقضاء على تلك العادة المردولة فكان تحرير الرقبة أفضل القربى إلى الله وكان كفارة الفرائض التي يقصر المسلمون في أدائها كما أجاز للعبد شراء حريته بأجر عمله فإذا لم يكن لديه المال الذي كوتب عليه كان من حقه أن يتفق مع سيده على سداذه بكسبه من عمل آخر فيسمح له بتركه بعد الاتفاق معه على ذلك، وفرض على بيت المال أن يخصص بعض حصيلته لفك الرقاب وللرقيق في شريعة الإسلام ما لل قريب والجار وابن السبيل من صدق الرعاية وحسن المعاملة ومن المحرمات أن يكلف العبد بعمل يؤوده أو يخاطب بصفته أو يطعم مما لا يطعم منه سيده أو يكون له لباس خاص يعلن عن وضعه وأن يفرق بينه وبين ولده أو أخيه أو زوجه أو أيّ من رحمه ولا يلصق الرق في الإسلام بالرقيق مهانة أو ضعة ولا يعدو كونه أمراً عارضاً لا سنة طبيعية. وقد تولى زيد بن حارثة - وكان عبداً لحديجة وأعتقه النبي - إمرة الجيوش وزوجه النبي بابنة عمته زينب بنت جحش وأمر ابنة أسامة على الجيش الذي أعده لحرب الروم وكان بلال أول مؤذن في الإسلام صحابياً جليلاً ممن شهدوا بدرًا عبداً أسود غضب له رسول الله حين عبّره أبو ذر الغفاري بسواده وأبى أبو ذر إلا أن يضع خده على الأرض ليطأه بلال وليغفر الله زلته . وأبو ذر أول من نادى في الإسلام بأن المال مال الله وأنكر أية ملكية خاصة للفرد .

وكان الإسلام ثورة اجتماعية كما كان ثورة دينية فعندما أهلك على العالم بنوره كانت حالة الجماعات الإنسانية في الشرق والغرب « تدعو إلى الرثاء - كما يقول سيد أمير على - بدرجة يقصر دونها الوصف بالكثرة ضعيفة مستعبدة لا تتمتع بأية حقوق اجتماعية أو سياسية، ففي الشرق كان الكهنة وكبار الملاك في فارس هم وحدهم أصحاب السلطة .

والنفوذ يستمتعون بالثروة ولا يتركون منها سوى فضلة تقيم أود المستعبدين من الرعية، وفي الغرب كان رجال الدين والأعيان من ذوى السلطان ممن يلوذون بالقيصر والعاشرات من حظاياه هم الذين ينعمون بالثروة والنفوذ والشعب يتمرغ في حمأة التعاسة والبؤس ويعانى الفقر والعوز، وفي بقية المجتمعات الإقطاعية كان السواد الأعظم من الناس إما أقتاناً أو أرقاء حتى جاء نبي الإسلام العظيم فنفض في بوق الحرية وأعلن المساواة التامة بين البشر وحرر الكادحين من ظلم المستغلين وقضى على الفروق الطبقية والتمايز العنصرى والدينى وجعل الناس سواء أمام القانون وأمام شريعة على درجة عظيمة من المرونة والبساطة والقدرة على التطور تبعاً لتطور الحضارة وتقدمها».

وتقوم الحضارة الإسلامية على التوفيق بين ما هو مادى وما هو روحى وتؤكد بذلك وحدة الإطار الخارجى والداخلى للحضارة. وهو ما تفتقده الحضارة الأوربية بعد ما فاقت معرفتها بالعالم الخارجى كل معرفة لها بالقوى الثابتة في نفس الإنسان.. مما أدى إلى خلل التوازن في بنائها العام، وهو الخلل الذى أدى بالحضارات السابقة إلى الانهيار والأفول. والذى ينذر حضارة العصر بنفس المصير المحزن وهو ما يجمع عليه مفكرو الغرب «فليس من المبالغة - كما يقول ويلز - أن الإنسانية قد أصابها في الوقت الحاضر مس من الجنون، ولسنا في حاجة إلى ضبط النفس كحاجتنا إليه اليوم، فإذا كنا نضم الفرد بالجنون ما لم يتوافق سلوكه العام مع ظروف حياته التى يحيها ويعيش فيها إلى الحد الذى يكون فيه سلوكه خطراً على نفسه وعلى الآخرين، وهى الحالة التى يتردى فيها الجنس البشرى كافة،... فإما تعقل وتماسك أو هلك وذهب هباءً وعليه حقا أن يواجه الهلاك أو يبدأ طوراً جديداً يبذل فيه من القدرة والجهد ما يتسم بالكمال، وما من سبيل يجتازه بين هذين النقيضين فإما إلى السماك الأعلى وإما إلى الحضيض الأدنى ولكنه لن يظل أو يبقى كما هو». وهو قريب مما ذكره برنارد شو في إحدى محاضراته التى ألقاها وهو يطوف حول العالم عام ١٩٣٣ بقوله: «إن الحقيقة التى نواجهها اليوم هى أننا نقف على حافة الهاوية نفسها التى تردت فيها الحضارات السابقة وتحطمت، وليس هناك شك في هذا، فالأعراض هى نفس الأعراض، والمصاعب هى نفس المصاعب، ولكن احتمال وقوع الكارثة أشد وأقوى، فهل ترى نجتاز الهوة أو نقع فيها بلا حول ولا قوة» إلا أن كارل ما نهايم يقترب من التشخيص لداء العصر أكثر من غيره فيقول: «إن الذين يميلون إلى الاعتقاد بأن وسائلهم لمواجهة المشاكل الاجتماعية وعلاجها جامعة شاملة يدركون أن النظرة العملية النفعية ناقصة وأن الجماعة إذ توجهها النزعة النفعية الخالصة تفقد حيويتها الداخلية المحركة»، ولا يخرج عن هذا المعنى ما يقوله «برتراند رسل» و«هارولد لاسكى»

و «أرنولد توينبي» و «أنيشتين» و «رينولد نيبور» و «راداكرشنان» وغيرهم من أئمة الفكر المعاصر.

وقد نختلف معهم كشرقيين في النظرة وفي التشخيص، فبينما تسم نظرتهم بالقناعة وينتهى تشخيصهم إلى اليأس حين يفقدون الأمل في التغيير المنشود، لا نرى نحن في الشرق ما يدعو إلى الحزن ولا يستعصى علينا التشخيص ما دمنا نملك القدرة على التغيير وهي القدرة التي تعوز الغرب فإن انهيار القيم المسيحية في عالم يدين بالمادية وعجزها عن التوافق مع العلم ومع المجتمع الصناعي قد آدبنا إلى الخواء الروحي الذي تعانيه الحضارة الغربية، وفشل العلم كما فشلت المثل الجديدة للعالم الصناعي في خلق قيم جديدة تحمل محل قيم المسيحية المتداعية وغدت المنفعة تعبيراً عن المادية الجديدة في صورتها العلمية والصناعية، فحيث أدى العلم إلى الإيمان الكلي بالواقع فقد أدت سيادة الآلة إلى مجتمع تحكمه القدرة الصناعية كما تحكمه أحلام القائمين على الصناعة من العامل إلى الممول، وحين اختلف الممول والعامل حول عائد الإنتاج نشب الصراع بينها وهو الصراع الذي تحكمه المذاهب الاقتصادية والاجتماعية الجديدة وهو صراع لا يقبل المهادنة وهو من الضراوة والحدة بما يهدد الحضارة بالفناء على مذبح الطمع والأنانية حين يقود العالم إلى حافة المواجهة الذرية فيقع في الهاوية التي ابتلعت الحضارات السابقة. فالشرقي - والشرقي المسلم بالذات - لا يرى خلافاً بين العلم الحقيقي والدين السليم المتطور فهما لا يختلفان في نظره - كما يقول ميرزا محمد حسين - إلا في الغاية والأسلوب والتعبير وليس ثمة خلاف جوهرى بينهما ما لم يتجاوز كل منها مجاله، «فالعلم الصحيح يعنى بوصف نواحي النشاط المختلفة للطبيعة، وبيان القوى المتباينة التي تعمل فيها كالكهرباء والبروتوبلازما والذهن أما الدين فيفسر الحياة بطريقة كلية ويعرض ما فيها من خبرات إنسانية ويوضحها قياساً على القدرة الإلهية العظمى».

ولعل الأمل الذي يراود الإنسانية في التوفيق بين الدين وحضارة العصر ما ينعقد عليه الرجاء الآن في قدرة الإسلام على مواجهة التحدى المادى. وهو ما حمل «لورد لوتشيان» في الخطاب الذى ألقاه في المؤتمر الدينى بجامعة عليكرة سنة ١٩٣٨ على إلقاء السؤال التالى: «هل يستطيع ديننا الهند العظيمان: الهندوكية والإسلام، أن يصمدا لضغط النظرة العلمية الحديثة الناقدة بأكثر مما استطاعت الأديان الأرثوذكسية في الغرب؟» ثم يقول: «هذا سؤال هام على قادة الدينين أن يواجهوه إذا كان للهند أن تحتب الكوارث التى ألت بالغرب. إن النظرة العلمية ستذيب بالتدريج ما بقى في نفوس الناس من خرافة وجهل

وهذيان ولكن هل تتزعزع لذلك قيمة التعاليم الروحية التي يبشر بها الدينان العظيمان بين المثقفين من الجامعيين والجامعات الذين سيقودون خلال الجيل أو الجيلين القادمين الحياة السياسية والثقافية والصناعية في الهند؟» .

« فمن الواجب ألا يقتصر الدين بالإنسان على حل لغز الكون، وإنما عليه أن يفسر له في دقة علمية كيف يسيطر على القوى الجديدة التي تهدد حياته بالدمار أكثر مما تنفعه . كيف يتفادى البطالة والتحف والاستغلال والظلم والحرب وغير ذلك من أمراض المجتمع وكيف يعالج الخلافات الشخصية والعائلية التي تهدد سعادة الفرد فالإنسان بعد أن تراكت عليه مشاكل العلم وازدادت دون حل، يلتمس في الدين الهداية في حلقة الشكوك والمشاكل وعلى الدين - إذا أراد أن يستعيد مكانته أو يبقى عليها - أن يقدم حلولاً روحية علمية تؤدي إلى نتائج حتمية» .

والحلول الروحية العلمية التي تؤدي إلى نتائج حتمية ثابتة الاستقراء العلمي هي ما نراه من قدرة الدين - أي دين - على التوفيق بين المادى والروحى وبين الفكر والواقع وبين ما هو طبيعى وما هو فوق الطبيعة، وهو التوفيق الذى يقوم فى الإسلام أساساً لوحدة الوجود برهاناً على وحدة الخالق الأعظم، فالإيمان بوحدة القانون الطبيعى يؤدي إلى الإيمان بوحدة الكون ويؤدي بالتالى إلى الإيمان بوحدة الخالق فالكون الواحد معناه إله واحد، وهى الوحدةانية التي بشر بها الإسلام فى بساطة ووضوح بقوله تعالى :

(قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد^(١) .
وقوله : (ولهمك إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم^(٢)).

فغدت جوهر العقيدة الإسلامية لا يصلح الإيمان إلا بها ولا يقوم إلا عليها لا ريب فيها ولا شك ولا جدال، وهى الحقيقة الأزلية الكبرى لا يغفر الله أبداً لمن نالها بباطل فى قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء^(٣)).

فهى حقيقة مطلقة قاطعة ولكنها لا تنزع الإنسان عن النظر والرؤيا والتماس البرهان واليقين، وإنما تحث عليها وتنشد النظر العقلى لإثباتها لا عن طريق التأمل فحسب وإنما بالبحث الاستقرائى فى طبيعة الأشياء والنظر فيها وتدبرها للكشف عن سرها ومعرفة القانون الذى يحكمها، والقرآن صريح فى دعوته لذلك فيقول :

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري فى البحر

بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون^(٨).
ويجمع القرآن في صورة باهرة بين تفسير القانون العلمي والنتائج التي يؤدي إليها، فالكون في كليته وفي ظواهره العديدة مما يخضع كما أثبت العلم لقانون كلي واحد واستقراء الإنسان للقانون الكلي الذي يحكم ظواهر الكون يمكنه من تسخير الطبيعة لغاياته ومنافعه فالفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، والماء الذي ينزل من السماء فيحيي الأرض بعد موتها نتائج لقانون ثابت يحكم مسبياتها.

ولكن الإنسان مهما بلغ من العلم سيبقى علمه قاصراً عن إدراك سرّ الكون، وهو ما يقوم عليه الدليل العلمي كلما أوغل الإنسان في المعرفة وفي الكشف عن الظواهر والجزئيات في تركيب هذا الكون الهائل وهو ما يؤكد القرآن، كما يؤكد العلم الحديث في قوله تعالى:

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً^(٩)).
(يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكم تكذبان . يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران^(١٠)).

فإذا اعتقد الإنسان أنه وصل بالعلم إلى غايته فقد حكم على نفسه بالجمود وإذا اعتقد أنه بعلمه الذي حصله - وهو علم مازال قاصراً أشد القصور - قد أدرك سرّ الكون فقد حكم على نفسه بالجهل. وإذا اعتقد أن ما لا يقوم عليه الدليل العلمي وإن أدركه بالعقل باطل فقد حصر نفسه في دائرة مقفلة تحول بينه وبين الفرض الذي يؤدي إلى اليقين فإذا عجز اليقين أو امتنع لعجز الاستقراء العلمي فليس فيه ما يعنى انعدام الظاهرة، وإنما يعنى عجز التجربة عن تبين القانون الذي يحكمها، وليس انعدام الظاهرة التي تثبت وجودها بما ينم عنها، وقد نرى من الظاهرة الطاقة التي نساخرها ونحكم فيها وإن كنا لا ندرك كنهها، فنحن لا ندرك من الكهرباء إلا ما ينبعث عنها من الطاقة التي نساخرها لمنفعتنا. وآفة العقل الغربي أنه في اعتقاده بقدرة العقل الإنساني ظن أنه قد وصل بهذه القدرة إلى إخضاع كل شيء وهو وهم باطل، فالعقل الإنساني من القدرة حقاً بما لا يقف عند حد، إلا أنه لم يستوف كل طاقات قدرته النافذة، ولن يستوفها ما دامت أبعاد الصوت والضوء

في كون لا متناهي تقف بينه وبين إدراك اللامرئي واللامسموع من هذا الكون الذي لا تدركه الأبصار أو الأسماع.

وهذا الاعتقاد نزع الغرب عن نفسه كل ما هو روحى وجعل من الوجود المادى أساساً لتفكيره ومن العلاقات التى تحكمه أساساً لسلوكه فأقام حياته على المنفعة فى واقعها الاجتماعى والاقتصادى فكانت أساساً للأخلاق وأساساً للعلاقات الاقتصادية مما يجعل حضارته نقيض الحضارة الإسلامية التى توائم بين الدين والعلم، وتزواج بين الروح والمادة بما يدعو الإنسان إلى إدراك صلته بالوجود ومكانه منه، ليكون العقل قوام إيمانه، فإذا بلغ الإيمان منه مبلغ اليقين العقلى، فغذاه بالمثل السامية فى الأخلاق والسلوك لتكون أساس حياته اتسق فكره مع بنائه الاجتماعى ونظامه الاقتصادى، لتقوم الحضارة على توقيير الحياة وإعلاء كرامة الإنسان وهما جوهر الحضارة الإسلامية وجوهر كل حضارة تدعو إلى حسن إدراك صلة الإنسان بالوجود ومكانه منه.

الإسلام والحياة:

هل بعث الدين غُلاً فى أعناق الناس يسخرهم لما يحفوه العقل أو تضيق به قدرة الإنسان؟ إذا كانت تلك غايته فهو عذاب الدنيا يتلوه عذاب الآخرة لمن يتنكر له أو يحفوه.

كانت تلك هى مأساة العقل الأوروبى صنعتها الكنيسة ولم تصنعها المسيحية، فالمسيحية الحققة كما قلنا - بسيطة غاية البساطة خالية من التعقيدات التى أدخلت عليها فيما بعد ولم تكن غير حركة تجديد لليهودية المنهارة. ففى قول المسيح: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل». وهى إحدى ديانتين سماويتين عظيمتين تسودان هذا العالم، فلا غرو أن كان لهما أعظم الأثر فى حياة الإنسان وفى الحضارة الإنسانية على السواء.

وبينما ينكر اليهود المسيحية، تعترف المسيحية باليهودية حلقة فى سلسلة التطور الدينى وبينما يعترف الإسلام بالديانتين العظيمتين السابقتين عليه، لا ينكر منها إلا ما تسرب إليها من عقائد الوثنيات المجاورة، لا يعترف أصحاب هاتين الديانتين بالإسلام. وإن كان الإسلام كما قلنا، وكما جاء بنصه - دين السماء، منذ بعثت أديان السماء «دين إبراهيم وموسى وعيسى دين عبادة الله وحده لا شريك له، الوحدانية المطلقة المنزهة عن كل شرك.

وهي آخر مرحلة من مراحل التطور. في إدراك حقيقة الله، تلك المراحل من التطور، التي مرت بها رسالة السماء منذ بعث بها نوح حتى محمد عليها السلام». (إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً^(١١)).

ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى تفصيل مراحل هذا التطور الديني وبيان صورته، فإن كل ما يعيننا أن الأديان السماوية كل متكامل في هذا الوجود الإنساني تطورت بتطوره وفتت إلى الكمال بناء هذا الوجود الإنساني نحو الكمال، ولا يعني هذا أن تطور الفكر الديني قد وقف عند رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فمحمد خاتم الأنبياء - حقيقة يسلم بها أتباع الأديان الثلاثة من واقع التاريخ - والإسلام عقيدة أكتملت فيها رسالة السماء، إلا أن تعاليمه مازالت تقبل التأويل والتفسير لتساير تطور الوجود الإنساني نحو الكمال، ومعجزة الإسلام أنه دين يساير كل زمان ومكان ويتطور بتطور الفكر الإنساني وتقدمه، وكل ما يقف عنده الإسلام فلا يقبل فيه تفسيراً أو تأويلاً هو الجوهر وليس العرض، فالوحدانية هي جوهر الإسلام، لا تقبل تأويلاً أو تفسيراً، أما المظاهر العامة للعبادات والتشريعات الاجتماعية فهي قابلة للتأويل والتفسير وقد تناوَلها المجتهدون منذ البداية بتفسيرات شتى ووضعوا لها حدوداً متباينة، ولكنها في تباينها لا تمس جوهر العقيدة أو تلمسها بتفسير أو تأويل، وقد ظنَّ فقهاء الإسلام أن باب الاجتهاد قد أقفل على الأئمة الأربعة حتى ظهر ابن تيمية ففتح باب الاجتهاد من جديد، وجاء بعده مجتهدون آخرون منهم من أخذ بسنة السلف ومنهم من جدد وكان الشيخ الإمام محمد عبده آخر المجددين في هذا المضمار. ومن البدهة أن يكون الدين ستاناً مع الفطرة ومع الخير العام للإنسان ومع أحكام العقل خالياً من الأسرار والطقوس التي تلقى ظلاً من الأوهام العاطفية على بداهاات العقل فإذا كان الإسلام يمثل أرقى وأسمى ما وصل إليه التطور الديني في حياة البشر. فإنه لا يتناقض ولا يمكن أن يتناقض في جوهره مع اليهودية والنصرانية، فإذا كان ثمة تناقض أو تباين في جوهر الحقيقة الخالدة، فإن مردّ هذا التناقض في أحدهما مما لا يردّ إلى تعاليم السماء وإنما يردّ إلى فكر الإنسان القاصر عن إدراك حقيقة الوجود.

وإذا كانت المسيحية قد أغفلت الجانب المادي من الحياة وقصرت رسالتها على

الروحانية المجردة فإن الإسلام قد جاء بشريعة مفصلة للحياة. فهو ليس عقيدة دينية فحسب وإنما هو حياة يحياها الناس فيها بينهم وبين أنفسهم وفيها بينهم وبين غيرهم، فارتبط بالحياة وأصبح قانوناً للحياة لا تنفصل عنه الحياة أبداً ما لم تضل الحياة مسارب أخرى للفكر. وكان على رجال الدين المسيحي أن يشرعوا للحياة ليكتمل ما بين الدين والحياة في عالم طحنته مادية روما وأحس بالحاجة إلى غذاء روحي جديد، وكان الاستشهاد قد أورثهم من الزهد في الحياة بقدر ما أورث الأقباط في مصر النسك والتبتل، كما أورثهم الحركة الدورية التي عمّت أرجاء العالم المسيحي فيما بعد، واقرن الزهد بجفاف الفكر اليوناني ونضوب الأسلوب العقلي للحضارة الهلينية فقام عالم أساس عقيدته - كما يقول فشر - «قول القديس أوجسطين إن الله خلق الدنيا متاعاً عابراً مصيره الزوال.. وأن الآخرة للمتقين خالدين فيها أبداً»، وثوى الفكر المسيحي إلى لاهوتية جامدة نأى بها عن الحياة وأغفل المجتمع وأنكر العلم والعقل.

فلما بزغ فجر العقل الأوربي كانت الثورة على الكنيسة وعلى الدين بقدر ما كان انطلاق الناس من قيم العالم القديم الذي قيدتهم به الكنيسة، فلاذ البعض بالإلحاد وأخذ البعض بالتنقيب في كتابات العهد القديم لتطهير المسيحية وتحريرها من ربة الإكليروس ولاهوتية القديس أوجسطين، وحين أراد توما الإكويني أن يوفق بين العقل واللاهوت مستلهماً القانون الطبيعي لم يزد على تأكيد عالم القديس أوجسطين، ولكن المصالح النامية لطبقة التجار المحدثه وظهور النزعة القومية الجديدة، هما وحدهما اللذان قضيا على عالم القديس أوجسطين وسلطة الكنيسة، فانهارت المثل المسيحية القديمة، وحل محلها عالم مثله الأعلى خير الناس ومصلحة الفرد، ولما نزع الفكر الغربي نحو التوفيق بين الدين والدنيا، عدّه حاجة من حاجات الإنسان العديدة، لا تثير من اهتمامه إلا ما تثيره مصالح دنياء كما يقول «بالم».

ولم يكن الإسلام في حاجة إلى مثل هذا التوفيق فقد جمع ما بين الدين والدنيا وشرع من الدين ما شمل الدنيا فأرسي قواعد الأخلاق على أساس من توقيير الحياة وإعلاء الكرامة الإنسانية وأقام قوانين الوجود على أساس من التأمل والعقل. ونظم العلاقات الاجتماعية والواجبات الإنسانية على أساس الواجب والمسئولية، وحدد المثوبة والجزاء فتجزى المحسنة بعشرة أمثالها عند الله، وتجزى السيئة بمثلها. وربط ما بين الدين والحياة برباط من الوحدة والاتساق لا يشدّ فيها الواحد عن الآخر ولا يتنكب الإنسان في أحدهما سبيل الآخر، «فكان دين الفطرة عن حق، فلو ترك الطفل وشأنه حتى يكبر لما اختار غير الإسلام»

- كما يقول الشيخ جايوش - ذلك أنه لا يناقض الطبيعة البشرية في حاجتها إلى الإيمان القائم على العقل، كما يعلى من شأن الخير ويسمو بالتوازن البشرية إلى العمل الصالح في قوله تعالى: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) فإذا تَوَاصَى الناس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله وحده لا شريك له فهم خير الأمم أو من خيارها، وما كان المسلمون خير أمة أخرجت للناس إلا لأنهم يقيمون حياتهم على هاتين القاعدتين اللتين جمعتا حكمة الأجيال وفلسفة الخير في الوجود.

والدين مما فطرت عليه الطبيعة البشرية تلوذ به النفس من رهبة هذا الوجود ليضفى عليها الراحة والطمأنينة استوحاه البشر خيالهم في حياتهم القديمة وسكنوا إلى ما استوحاه خيالهم القاصر، فلما بعث دين السماء كان ملاذاً للنفس وهدياً للناس. (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(١٢٠)).

والناس في حاجتهم للدين يشدون استقامة حياتهم وصلاح حالهم، والإنسان بما فضله الله بالعقل والفكر يتطلع إلى اليقين، وكلما ارتبط يقينه بعقله وفكره نعم بالإيمان الخالص وكان إيمانه من هدى يقينه، ويقين المسلم دليل إيمانه، فالحقيقة الأزلية الخالدة في الإسلام هي: (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) وهي حقيقة يدركها العقل دون عناء، وما تباین العقائد وتعددها في تصوير الآلهة إلا من قبيل العجز عن إدراك وحدة الوجود، وقديماً أدرك الفلاسفة والحكماء وحدة الخالق ووحدة الوجود ولكنهم أخطأوا القياس وضلوا التصور، فبينما « كان عامة الناس » كما يقول هنري توماس مؤلف أعلام الفلاسفة - يتحدثون عن الآلهة، كما نتحدث نحن عن الملائكة تماماً، كان الأكثر حكمة يذكرون الله، وقد آمن إخناتون، ويعنى اسمه « المكرس لله » بقوة سماوية واحدة تطل حانية من عل على وجه الأرض، وتحل في كل شيء من خلقه. في الإنسان وفي النبات وفي الحيوان وفي الجماد، وتصورها في الشمس أو الشمس رمزاً لها فتوجه إليها بالدعاء وفي « زند - افستا » أو « تفسير الحكمة » في الزرادشتية أن « أهورا مازادا » هو رب الخليقة والحياة والمادة، وفيه تتجسم العدالة والألفة والأخوة الإنسانية فما الحياة في نظر زرادشت إلا رحلة جزئية نقوم فيها بخدمة بعضنا البعض، فإن « أهورا مازادا يضم كل البشر في حبه الشامل » وفي فلسفة بودا ضلّت فكرة الألوهية في تهويمات اللامتناهى في الترفانا وفي عقيدة

العودة والتناسخ، ورحل كونفوشيوس عن الحياة وقد ارتفع بعد موته إلى مصاف الآلهة عند الصينيين لا أدرياً يرى أن العقل غير قادر على إدراك كنه الحياة «وإننا لا ندري ما وراء الظواهر المادية» واتجهت الفلسفة اليونانية إلى طبيعة الوجود دون طبيعة الله، فتحدثت عن خليقة حية بدون خالق حتى «حتى جذبها أكسانوفان إلى فلسفة الشرق وإلى فكرة العالم الواحد في رعاية الإله الواحد».

فقال إن مرد الكون لله، وبدأ الفكر اليوناني يسلم بالفكرة الشرقية عن التوحيد «الله واحد لا بداية ولا نهاية» «فهو العقل الذي يهيمن على العالم والجسم الذي يكون العالم» كما يقول صاحب أعلام الفلاسفة - وسخر أكسانوفان من تصوير الله على صورة البشر وتبعه فيثاغورس فآمن بالوحدة غير المرتبة لله وقال إن العالم المرنى صورة شوهاء لنور الله، وإن مزج فكرته بالفلسفة الهندية عن تناسخ الأرواح. ثم كانت مدرسة سقراط في الفلسفة فقيل إنه «أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض» واتجه باهتمامه إلى عقل الإنسان دون البحث في أسرار الله.

وهكذا سبق البحث عن حقيقة الله أديان السماء، فلما بعث الإسلام جاء فيها بالقول الفصل، وما كان الإسلام إلا امتداداً لليهودية والمسيحية، وكان من التباين بينهما حول عقيدة التوحيد ما فسر «لورد ماكولي» واستشهد به الشيخ جايوش بقوله «إن علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضايهم على البرهان العقلي، فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الأشياء ما لا يمكن للعقل أن يحيط به، بخلاف السواد الأعظم من العامة فإن معظم أفكارهم وقضايهم إما خيالية أو وهية أو شعرية فلا يكادون يبدون شيئاً من مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت كما يظهر الأديان الوثنية في كل أمة وفي كل جيل وفي كل زمن فاختلفت لذلك صور الآلهة باختلاف ما صوره خيال معتقديها».

«ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديماً في دينهم من البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة أن يكون لهم إله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والإجلال، ويمكن القول بأن معظم الأسباب التي ذكرها «جيبون» ورد إليها انتشار المسيحية لم تؤثر ذلك الأثر ولم تكفل له الذبوع في أرجاء الأرض إلا لأنها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهية التي كان لها أكبر سلطان على نفوس السذج من العامة، فإن إلهاً لم يخلق وكأنناً لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به إلا الفلاسفة العالمون، وأما الأخلاط ضعاف العقول من الناس فإنهم قد ضاقت دائرة أفكارهم وانقطعت سلسلة إدراكهم عن أن تصل إلى القول بأنه ليس له صورة محدودة في نفوسهم، فكانوا يتأففون

وهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة ويرمونهم بالبله أو قصور الذهن .
« طاشت النفوس في الأزمنة القديمة، وضلّت الصراط السوى، وقست القلوب وانتهكت
الحرمات فجاء المسيح عليه السلام وأخذ يعلم الناس ويدعوهم إلى ما جاء به من الهدى
فمنهم من آمن ومنهم من كفر. ولم يسلم أتباع المسيح من أن يصيبهم في إيمانهم مثل ما أصاب
اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم، فتمثل الإله لهم في صورة آدمى يمشى بينهم ويشاركهم
أفراحهم وما يعترهم من الانحلال والاضمحلال كما كان يبكى في القبور وينام في الحظائر،
ثم صلب حتى سال دمه على أعواد الصليب، فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من الوثنية.
ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لفيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان، فكان
القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المريح عند اليونان، وكذلك اتخذوا العذراء
وسيليا وغيرها آلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى الهات
لدى اليونان».

« ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يزبلون ما لصق بعقول العامة من تلك الصور
الوهمية ولكنهم لم يفلحوا».

فالدين بما فطر الناس عليه، قد نراه اتجاهًا غريزيًا أو ميلاً فطريًا بحكم ما ركب من
الطبيعة البشرية من وجود قوّة خفية تسيطر عليهم وعلى ما حولهم، أو لحاجتهم النفسية إلى
ما يشبع أرواحهم، أو يبرر هوائهم اللاشعورية، ففى أعماق اللاشعور من كل إنسان
ما يرهص بأشياء لا يسيطر عليها عقله قد نسميها إلهاماً وقد نسميها هواجس، ويقول
البعض إنها الحاسة السادسة، ومهما يكن من أسباب هذه الفطرة ودواعيها فإنها فضلاً عن
إنها كامنة في الإنسان فإنها تدفعه إما إلى التعبير عنها أو تبريرها بما يألفه من أفكار غالباً
ما يمتصها من المجتمع الذى يعيش فيه، أو ما يلوذ به من معتقدات قد تقوم مقام الدين
وتغدو في النهاية ديناً يؤمن به كما هو الحال في البوذية والكنفوشية، أو يتجه إليها بعقله
فيغمره الضوء الإلهى بالنور ويغذيه باليقين، وكلما كان الدين عقيدة يقبلها العقل ويتمثلها
الوجدان كان أقرب إلى النفس وأدعى إلى اليقين، ولا يقبل العقل ما يخالف الطبيعة
البشرية أو ينكر قانون الطبيعة أو سنتها الأزلية فالدين الحق لا يقهر الضمير ولا يبطل
الوجدان ولا يجفو العلم.

فلما جاء الإسلام كان هادياً للنفس البشرية من نوازع الضلال والشرك، مؤتلفاً مع
الطبيعة البشرية لا يشدّ عنها، مصدقاً للعقل والعلم، حاثاً على كشف أسرار الكون
والسيطرة عليها، لذلك كان دين الفطرة ودين العقل.
(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم. إن في خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون^(١٣).

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم^(١٤)).
(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل .
لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ^(١٥)).

هذا هو الله جلّ جلاله في الإسلام واحد، أحد لا شريك له ولا كفء، لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وهذا هو الإيمان في الإسلام معرفة صافية في إدراك وحدة الوجود في وحدة الخالق فلا يضل عنها إنسان ولا ينبذها عقل، فإذا هدى فالإيمان الحق يأمر بالصلاة والصوم والزكاة وحج البيت، وهي جميعاً مما تسمو بها النفس بالإيمان إلى أعلى عليين ، فلا يكتمل الإسلام بغير الإيمان فالإسلام إذعان وقبول رغبة أو رهبة ، والإيمان اتصال ما بين النفس في صفاتها والخالق في قدرته اتصالاً يقوم على العقل والفكر والتدبر في خلق هذا الكون وسنة الله التي لن تجد لها تبديلاً اتصالاً يسمو إلى الفناء في الذات الإلهية عن حب ويقين، حباً يتصل بالحياة وتوقير الحياة فمحبة الخلق من محبة الله، و يقيناً بما أنعم الله على عباده وبما فضل الإنسان وكرمه على سائر خلقه وفي قوله تعالى :

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم^(١٦)).

والصلاة صلة ما بين الله والعبد يرقى بها الإنسان إلى الكمال الروحي ويفنى خلالها في الذات الإلهية، فيغمره نور اليقين بالإيمان ليرى نفسه قريباً من الله وأن الله معه في كل حين :

(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون^(١٧)).

وليست الصلاة سجوداً وركوعاً وقياماً وقعوداً وتلاوة وتكبيراً، وإنما هي في السجود والركوع والقيام والقعود والتلاوة والتكبير ذكر لله واتصال به جلّ شأنه في كل ما يقوم به

(١٦) المجرات : ١٤ .

(١٧) البقرة : ١٨٦ .

(١٣) البقرة : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(١٤) البقرة : ٢٢٥ .

(١٥) الأنعام : ١٠٢ - ١٠٤ .

الإنسان من حركة الحياة، فما هذه الحركات التي تؤدى خلال الصلاة إلا رمز لحركة الإنسان الدائمة في الحياة وعلى الأرض، يأنس فيها إلى الله ويذكره ويشكره في كل حركة من حركات حياته وفي السراء وفي الضراء . وكأن الله معه على الدوام، فهذه الحركات في الصلاة مما لم يرد تفصيلها في القرآن ولكنها مما سنه النبي الكريم نظاماً مقررماً يربط المسلم بذكر الله على الدوام حيثما كان وأينما كان وكيفما كان، فإذا كانت لها أوقات محددة تتواتر الواحدة بعد الأخرى على مدى اليوم، فلا يفوت ذكره تعالى قلب إنسان يتجدد الذكر ويبقى اسمه تعالى وحده جل شأنه على كل لسان وفي كل وقت:

(فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون^(١٨)).

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانهك فقنا عذاب النار^(١٩)).

(واذكر ربك كثيراً وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار^(٢٠)).

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً^(٢١)).

(قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى)

(كى نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً^(٢٢)).

(واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين^(٢٣)).

(واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً^(٢٤)).

(فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً^(٢٥)).

(يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون^(٢٦)).

(يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً^(٢٧)).

(يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون^(٢٨)).

(٢٤) الكهف : ٢٤ .

(٢٥) النساء : ١٠٣ .

(٢٦) الأنفال : ٤٥ .

(٢٧) الأحزاب : ٤١ .

(٢٨) فاطر : ٣ .

(١٨) البقرة : ١٥٢ .

(١٩) آل عمران : ١٩١ .

(٢٠) آل عمران : ٤١ .

(٢١) الأحزاب : ٢١ .

(٢٢) طه : ٣٢ - ٣٤ .

(٢٣) الأعراف : ٢٠٥ .

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(٢٩)).

(الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُم وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ^(٣٠)).

فإذا كانت حركات الصلاة هي التعبير عن حركة الحياة العامة فإن ذكر الله فرض دائم لا في الصلاة وحدها ولكن في كل حركة من حركات الحياة وما الصلاة إلا رمز لذكر الله وتجديد لهذا الذكر الدائم المستمر.

وما الصلاة إلا عبادة وسمو وتقديس وإيمان إذا تجردت من هذه المعاني غدت ولا معنى لها، ففى قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ^(٣١)).

وهذا هو جوهر الإسلام في صفاته وقوته ليس عبادات وطقوساً تؤدى دون وعى أو إدراك يعبر عنه سيد أمير على «بالإقرار الشفوى دون العمل الخالص» وهذا هو معنى الصلاة اتصال بالله وتجرد له وتسبيح بقدرته وذكر ودعاء لا تختص بمكان ولا يختص بها مكان من سطح الأرض أو تحت السماء تقام وأينما تقام فهو مكان ظهور ما توجه الإنسان إلى الله بقلب سليم وما المسجد إلا منتدى للمسلمين عامة يؤمنونه للصلاة كما يؤمنونه لمناقشة أمورهم ومصالحهم، أو للمذاكرة والدراسة في أمور الدين والدنيا فهو مكان للصلاة والدراسة وبرلمان تناقش فيه على حد سواء شئون المسلمين العامة والخاصة، وحيث يلتقى المسلمون في المسجد يتساوون جميعاً في إبداء الرأي والمناقشة كما يتساوون جميعاً أمام الله في الصلاة فتسمو حرية الرأي بهم إلى النظر الصائب والعدالة المطلقة بين الجمع كبيرهم وصغيرهم.

وحيث يتجه المسلمون في صلاتهم إلى مكة وإلى بيتها المحرم حيث قامت الرسالة فلاجل أن تبقى ذكرى البعث ومولده حية في أذهانهم، وليكون هذا الاتجاه رمزاً لوحدة المسلمين على الزمان.

والصوم كالصلاة عبادة وقنوت وتجرد لله ورياضة للروح وتحرر من طغيان المادة وشهوات الجسد وكمال للتقوى، قال تعالى:

(٣١) البقرة : ١٧٧ .

(٢٩) الأنفال : ٢ .

(٣٠) الحج : ٣٥ .

(يأياها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون^(٣٢)). وهو مران للقدرة الإنسانية على ملاقات الشدائد، ولقوة الإرادة على قهر النفس. فيها ترغب فيه من لذة أو شهوة وحين تتحرر النفس من شهوة الجسد ولذاته تسمو على مادية الحياة لتتجرد لله وتنفى في ذاته العلية فترقى إلى المعرفة عن طريق التأمل في عظمة هذا الكون وعظمة خالقه. وفي قهر النفس مران للقدرة الإنسانية على ملاقات الشدائد بالشجاعة والصبر، فالانسياق وراء اللذة والاسترخاء للترف وراحة العيش مما يفقد الشعوب قوتها وشجاعتها فالترف يجلب للدعة والاسترخاء مذهب للشجاعة كما يرى ابن خلدون، وكان ما يحشاه عمر على المسلمين أن تفتنهم مغنم الفتح افتتاناً ينسيهم المبادئ التي أظهرتهم على عدوهم، فتتغير نفوسهم فيغير الله ما بهم. فالقدرة الإنسانية ليست إلا مزيجاً من التفاعل بين القوى المعنوية والقوى المادية في الإنسان « فإذا زادت القوى المعنوية في الجماعة - كما يقول هيكل - سواء كانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية أدّى تفاعلها مع القوة المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها. ذلك بأن القوى المعنوية هي التي تدفعنا إلى طلب الكمال الإنساني وإلى الدأب في سبيله، والجماعة مع ذلك لا غنى لها عن قواها المادية ومضاعفة نشاطها، وهذه القوى تزداد نشاطاً وإنتاجاً بدافع من القوى المعنوية، فإذا ضعفت معنوياتنا ضعفت نشاطنا المادي وتضاءل إنتاجنا».

والزكاة فريضة تفرد بها الإسلام وتوجب في أبسط ما تذهب إليه أفراد نصيب معين من مال الغنى للفقير، وهي عبادة من حيث إنها فريضة وهي قاعدة أخلاقية من حيث إنها أساس للتكافل الاجتماعي، وإن كانت قواعد الأخلاق مما قامت عليه الشريعة بل إنها في جوهرها قانون للأخلاق الإنسانية في أعماق الضمير، فحين رأى عثمان بن عفان في خلافته أن موارد بيت المال قد كثرت وقاضت قصر الزكاة على الأموال الظاهرة وهي زكاة الزرع والثمار والماشية وترك للناس أن يؤدوا زكاة الأموال الباطنة وهي زكاة النقود وزكاة التجارة وتركهم لدينهم ولصدق ضمايرهم في أدائها. ولما رأى الفقهاء في هذا ما يخالف السنة علوه بالإنباء فقالوا إن عثمان أناب عنه بالنسبة للأموال الباطنة أرباب الأموال ليصرفوها في مصارفها، فإذا ثبت أنهم لا يؤدونها حملهم على أدائها وقام هو بتوزيعها، فكانه ترك الناس لضمائرهم ومسئوليتهم عنها أمام الله والمسئولية في الإسلام مسئولية أمام الله أولاً وقبل كل شيء. فمن البرّ من آتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، ومن البرّ من آتى الزكاة وانفق مما رزقه الله.

ويقرن القرآن الزكاة إلى الصلاة في مواضع كثيرة بقوله تعالى :
(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ^(٣٢٦)).
ويقول جلّ شأنه :

(قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون .
والذين هم للزكاة فاعلون^(٣٢٧)).

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا).
وللزكاة ثوابها عند الله أكرم الثواب ومثوبتها كمثوبة من آمن به وأقام الصلاة :
(وبشّر المحبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي
الصلاة وما رزقناهم ينفقون^(٣٢٨)).

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانيةً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون^(٣٢٩)).

والزكاة ما قرره الشريعة حقاً للفقير من مال الغني والصدقات ما زيد عليها، وهي في
المكان الأول من فعل الخير يجزى عليها الإنسان الجزاء الأوفى، ويعظم الجزاء ما كانت سرّاً
وخفية، وتبطل ما صاحبها المنّ والأذى. يقول تعالى :

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبله مائة
حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم
لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .
قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم . يأيتها الذين آمنوا
لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر
فمثلته كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا
والله لا يهدي القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من
أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله
بما تعملون بصير^(٣٣٠)).

وبين القرآن لمن تكون الصدقات في قوله تعالى :

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين
وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم^(٣٣١)).

(٣٢٦) البقرة : ٢٧٤ .

(٣٢٧) البقرة : ٢٦١ - ٢٦٥ .

(٣٢٨) التوبة : ٦٠ .

(٣٢٩) البقرة : ٤٣ .

(٣٣٠) المؤمنون : ١ - ٤ .

(٣٣١) الحج : ٣٤ - ٣٥ .

فهى للفقراء وهم من لا يملكون ما يسد حاجتهم، وللمساكين وهم من كان كسبهم أقل من حاجتهم أو غير قادرين على العمل لعجز أو علة أو لا يجدون العمل مع قدرتهم عليه، وللعاملين عليها أجراً لهم على تكليفهم بجمعها، وللمؤلفة قلوبهم وهم من حرموا الكسب بسبب إسلامهم أو من أراد النبي أن يؤلفهم إلى الإسلام بالعطاء، وقد أبطل عمر عطاء المؤلفة قلوبهم عندما أصبح الإسلام قوياً وفي غير حاجة إلى ذلك، وفي الرقاب وتعنى مساعدة العبد على دفع ثمن عتقه، ويرى «ميرزا محمد حسين» أن يرتد هذا الحق بعد زوال الرق إلى من يسجن لعجزه عن أداء الدين أو دفع غرامة يحكم بها عليه فيستوفيها سجنًا. وللغارمين وهم من يفقدون أموالهم بسبب دين لا يد لهم فيه كمن يتورط في ضمان مالى لمصلحة عامة أو لخسارة في تجارة أو في مشروع للكسب وعاد بالخسارة، وفي سبيل الله وتعنى الجهاد أو القيام بعمل لخدمة الإسلام والمسلمين، ولابن السبيل من الغرباء الذين ضل بهم الطريق أو انقطع عنهم ما لهم لبعد الدار وانقطاع المدد.

والزكاة كالضريبة في الدولة، ولكنها ضريبة تدفع طوعاً وحباً في الله فإذا امتنع عنها المسلم أهدر ركنًا من أركان دينه وحق لولى الأمر أن يقضيه منه ويحمله على أدائها فحين امتنع بعض المسلمين عن أداء الزكاة أول خلافة الصديق قاتلهم في سبيلها وقال: كما رواه البخارى «الزكاة حق المال. والله لومنعنى عقلاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها».

ويخلط كثير من المسلمين بين الزكاة والصدقة، فيرى الماوردى وآخرون أن الزكاة والصدقة أمر واحد، وإن ذهب كافة المسلمين إلى التمييز بينها فالزكاة فرض والصدقة هبة والزكاة مقدرة شرعاً والصدقة على قدر ما يوجد به صاحبها ولا حدود لها في الشرع وقد أغفل المسلمون الزكاة إلا زكاة الفطر فتؤدى آخر شهر رمضان أو ليلة عيد الفطر عن العائل وأهله وضييفه على مدى الشهر وحل الإفطار وهو في ضيافته وبقيت الصدقة إحساناً وشفقة.

والحج كما تعرف مؤتمر المسلمين يجتمعون فيه ليتعارفوا ولتتجدد عواطف الأخوة فيما بينهم وليحجوا إلى البيت العتيق حيث أهلت على الدنيا أنوار الساء وحيث مشى التاريخ في منزل الوحي بنور الجلال.

هذه هى أركان الإسلام وفرائضه من الوحدانية الخالصة والصلاة والزكاة والصيام وحج البيت تتخذ شعائر وقواعد مقررة هى مرآة ومرساة للإيمان المطلق والمثل الأعلى للحياة الروحية والعقلية والطهر الإنسانى ونقاء الضمير وهى جميعاً مما تؤكد الشعائر والقواعد

المقررة في نفوس الناس « فطالما كان النقص من طبائع البشر - كما يقول - موشيم مؤلف، التاريخ الكنسى - فالحاجة إلى الطقوس الظاهرة والشعائر العملية لإبقاء جذوة الشعور الدينى متقدة في نفوس العامة مما لا يتنافى مع الإيمان والمحبة » والشعائر الإسلامية كما قررها القرآن وأوجبها السنة في صورتها التي تجرى عليها ليست إلا تعبيراً عن وحدة العقيدة في وحدة الصورة العامة، فوحدة التلاوة والتعبير والحركة في الصلاة تعبير عن العقيدة ووحدة الشعور ووحدة النظام واجتماع المسلمين على الصيام في شهر معين هو شهر رمضان بالذات وبين أوقات معينة من اليوم تعبير عن الإيمان كما هو تعبير عن الوحدة العامة للمسلمين، والحج وهو أكثرها شعائر فإن لكل شعيرة فيه مغزاها الروحى والمعنوى ولعلها فيما نعتقد مما يتصل بمولد عقيدة التوحيد وبناء البيت العتيق على يد إبراهيم عليه السلام وبتطور رسالة السماء هذا التطور الذى نراه منذ بعث إبراهيم بعبادة رب البر والخير والصالح ومن قفاه من الأنبياء والرسل ممن جهروا برسالة السماء ودعوا إليها حتى اكتملت على يد محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وفي تواتر هذه المناسك والشعائر كل عام ما يربط الحجيج وغير الحجيج بوحدة العقيدة منذ اتصل ما بين السماء والأرض حتى انقطع عن الناس خبر السماء بختام الرسالة، وفيها عدا الشعائر المقررة لفروض الإسلام وما تحمل من معان بالغة غاية السموات نجد من أداب الإسلام وأخلاقياته ومعنوياته ما يقوم دستوراً للحياة في كل صور الحياة وأسماها، وللحضارة في أرقى ما تصل إليه الحضارة، يصوغ المعاملات والعلاقات الاجتماعية والسلوك الإنسانى على الحق والخير ولا يضع قيوداً على الضمير أو يحول دون تقدم الفكر ولا يكبل الإنسان بالزهد والتقص ولا يرضى أن يسلم نفسه للترف والاستمتاع بل هو بين ذلك قواماً، ويدعو إلى التأمل والنظر في خلق الله وإمعان الفكر ليسمو العقل إلى حقيقة الكون والكشف عن أسرار.

وليس هناك ما هو أبلغ مما جاء به القرآن في هذا ولا نستطيع في عجزنا إلا أن نتلو من آياته تعالى ما يعبر عن حقيقته. فالأخلاق الإسلامية تقوم على المحبة ومبناها الأخوة، والعدل ومبناها المساواة، والرحمة ومبناها الإحسان والتعاطف، والصبر والأمر بالمعروف ومبناها حب الخير للآخرين، والنهى عن المنكر ومبناها كل ما يسئ إلى النفس وإلى الآخرين. يقول تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون^(٣١)).

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو

كلاهما فلا تقل لها أف ولا تنهرها وقل لها قولاً كريماً . واخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً . ولا تمس في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً^(٤٠) . (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون^(٤١) . (قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون^(٤٢) . (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين^(٤٣) . (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين^(٤٤) . (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم^(٤٥) . (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها^(٤٦) .

(٤٤) المؤمنون : ١١٨ .

(٤٥) فصلت : ٣٤ .

(٤٦) النساء : ٨٦ .

(٤٠) الإسراء : ٢٣ - ٢٨ .

(٤١) الأنعام : ١٥٦ - ١٥٢ .

(٤٢) المؤمنون : ١ - ٥ .

(٤٣) النحل : ١٢٦ .

ويقول عليه الصلاة والسلام:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي» ويقول: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وبعد، أفنبغي من الحياة غير هذا رحمةً ومحبةً وألفةً وعدلاً وخيراً واستقامةً وتجنباً للذرائع والتزاماً بالفضائل والفضائل والذرائع قيم لا تخضع للتقنين العلمي - كما يقول برتراند رسل - ولكن العلم إذا تغلّى عنها ولم يجد لها تقديراً عادلاً كان مجلبة الشر ولتنتج عنه أسوأ النتائج» والتقدير العادل للقيم كما نرى هو بما تعكسه من نتائج على الحياة فإن كانت خيراً كانت القيم التي تحكمها خيراً وإن كانت شراً كانت القيم شراً، ولكن الخير والشر مما يتصل بالقيم ولا يخضعان بدورها لمعيار مادى ما لم تتحول تلك القيم إلى مدلولات مادية والزكاة والصدقات لها مقاييسها المادية وإذا قيل لا تسرق ولا تقتل ولا تزن فإن لكل منها دلالتها المادية، لذلك كان على الدين أن يفسر الفضائل والذرائع بدلالاتها المادية المحددة حتى لا يضل العقل في تجريدات مبهمة يفسرها كل إنسان على هواه لذلك قامت الشريعة الإسلامية على أسس منهجية منظمة حتى شعائر العبادات ليست في ذاتها إلا تعبيراً مادياً عن الإيمان وهو ما نرد به على بعض الأوروبيين الذين راوا في العبادات الإسلامية تعقيدات افترضوا فيها التزيد.

فالإسلام تشريع لهداية الإنسان، هداية ترتفع به إلى السماء ليرى نور الحق ونور الجلال في الله وحده: لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.. نور السموات والأرض.. فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى.. له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت.. الحى لا إله إلا هو.. يسبح له من فى السموات والأرض هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة.. وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً.. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.. ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون.. ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون.

وهداية تصل الانسان بالأرض التي يعيش عليها لتستقيم حياته على الحق والخير ما التزم بقواعد الدين وأخلاقه وآدابه وبما رسم له من حدود وبما سن من شرائع تقوم عليها حياة الفرد والجماعة متوائمتين فى توازن لا تطفئ فيه الفردية على الجماعية ولا الجماعية على الفردية حيث يقوم الوازع الإلهى متسقاً مع وازع الضمير ليعرف الفرد واجبه نحو الجماعة ولتعرف الجماعة واجبها نحو الفرد فحقوق الفرد واجب على غيره من لأفراد وعلى الجماعة وحقوق الجماعة واجب على الفرد، فالحقوق فى الإسلام واجبات وتكليف حتى

قيل في تعريف الفقه الإسلامى إنه « العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة » فإذا ارتقى الحق إلى درجة الواجب وأصبح تكليفاً وإلزاماً لم يعد من الحقوق إلا ما هو واجب وحق وتميز الحق في الواجب..

ويقوم الوازع الإلهى على الإيمان وبدونه تختل القيم، فقد خلق الإنسان ضعيفاً وهو في ضعفه يشد منفعته ولو كان فيها ضرر للآخرين، فالمنفعة نزعة أصيلة في الإنسان ولكن مردّها إلى الأنانية. ومن حق الفرد أن يشد منفعته ويسعى وراءها ما لم تكن سبباً في مضرة الآخرين والوازع النفسى عند الفرد هو الذى يحول بينه وبين تحقيق منفعته على حساب الآخرين، ويردّ الأخلاقيون هذا الوازع إلى الضمير، ويرونه أسمى ما يصل إليه الإنسان من ارتقاء ويقوم القانون الوضعى بتنظيم العلاقة بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة ويضع القيود على نوازع الفرد التى تضر بالآخرين، ولكن طالما استطاع الفرد خداع القانون وتجنب المضرة التى تقع عليه من مخالفة القانون فإن وازع العقوبة يتضاءل في نفسه ولا يبقى فيها غير وازع الضمير، وهو وازع يخفى غالباً أمام المنفعة، فلكل إنسان مهما بلغ وازع الضمير فيه من القوة والأصالة حدّه من المنفعة، فإذا فاقت المنفعة وازع الضمير تغلبت المنفعة، وإذا كانت دون ما يراه الإنسان لقدرة رفض المنفعة، لا بوازع من الضمير ولكن المنفعة في نظرة أقل مما يستوجبه تقديره لذاته، فإذا لم يزع الإنسان ما يفوق وازع الضمير من خوف الله ورهبته، طغت الأنانية وضعفت الأخلاق وأصبح باطن الإنسان غير ظاهرة «ومكنون أمره - كما يقول هيكل - غير ما يبدو للناس به ، فهو يصطنع الأمانة وليس ما يمتعه أن يتخذها ذريعة لتصيد المنافع، وهو يتظاهر بالصدق ولا يصدّه عن مجافاته جلب منفعة له، أخلاق ذلك ميزاتها ما أسرع ما يضعف صاحبها أمام المغريات، وما أسرع ما يجرى وراء الأهواء والغايات».

الإسلام وحرية الإرادة :

وكان القضاء والقدر أكثر ما ألم بالعقل الإنسانى وشغل به تفكيره منذ القدم من أى شيء آخر حين وقف الإنسان عاجزاً أمام سنة الكون والقانون الذى يحكمه منذ الأزل، ومازال العقل الإنسانى برغم تقدمه عاجزاً عن إدراك كثير من الظواهر التى تعجب عليه وسيبقى عاجزاً مهما أوغل في السيطرة على الطبيعة، فكلما ازداد علمه ازداد إدراكاً لعجزه، فإن ما يكشفه كل يوم من أسرار الوجود يؤكد له على الدوام أنه مازال يخوض في نقطة من بحر لحي لا نهاية له ولا قرار. ولم يختلف فكر الإنسان المعاصر وهو يخترق أجواز الفضاء

ويصل إلى القمر ويتطلع إلى ارتياد غيره من كواكب المجموعة الشمسية عن فكر هذا الإنسان الأول في كهفه وفي بيئة صعيده المحدودة في نظراته إلى السماء وإلى الظواهر الطبيعية العارضة التي تنفص عليه حياته من برق ورعد وزلازل وبراكين وأنواء ورياح ويقف دونها عاجزاً، فإن سيطرة الإنسان المعاصر على بعض الظواهر الطبيعية وإن أدت به إلى معرفة أوسع فقد وضعت أمام ظواهر أضخم وأعظم لم تخطر على بال الإنسان الأول أو إنسان الجيل الماضي، وأصبح أمام هذه الظواهر التي قادته إليها معرفته الجديدة أكثر عجزاً مما كان أجداده، وإن كان عجزه من قبيل الانبهار والتطلع واليقين أكثر مما هو عجز استسلام وخوف وشك، فلإنسان القديم في عالمه القاصر وفي تصوراته المبهمة عن هذا الكون لم يدرك قط أن أرضه جزء من كل هذه المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضه وأنها بالنسبة إليها لا تزيد على حجم سنّ دبوس يلقى على مسطح الكرة الأرضية، ولم يدرك أن المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضه ما هي إلا واحدة من ملايين المجموعات الشمسية في بحر المجرة وأن هناك ملايين المجرات الأخرى تسبح فيها ملايين أخرى من المجموعات الشمسية.

أيّ كون هائل هذا الكون وأي صنّاع قادر عليه؟..

وهذه هي المعرفة التي تقود إلى الإيمان، الإيمان بما في هذا الكون من خلق عظيم ومن إعجاز يفوق قدرة العقل الإنساني على الخيال والتصور.

وهي المعرفة التي عناها جلّ شأنه بقوله تعالى:

(إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون^(٤٧)).
(هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب والثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال^(٤٨)).

(إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين^(٤٩)).

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين^(٥٠)).

(ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير^(٥١)).

(ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار^(٥٢)).

(الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير^(٥٣)).

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره^(٥٤)).

(الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح في زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم^(٥٥)).

وطالما ظلت معرفة الإنسان قاصرة عن إدراك القانون الكلي الذى يحكم الأشياء والظواهر وتستبقى قاصرة دون إدراك ظواهر بعينها كالموت والحياة - فسيبقى عجز الإنسان عن إدراك العلة خارج طاقته وقدرته العقلية ولا مندوحة له إلا أن يردّها إلى إرادة أعلى وأعظم وهى ما عبر الإنسان عنها بالقدر وما نعبر عنه بالإرادة الإلهية التى تحكم كل شيء بقدر وبسنة لا تبديل فيها ولا تحويل وهى السنة الإلهية التى تحكم العلل والمعلولات وتحكم الحاضر والغائب وفقاً لقانون ثابت هو مандعوه فى تعبيرنا القاصر بالقانون الطبيعى .

فالقدرية قديمة قدم الإنسان وقدم الفكر الإنسانى حين أقدم الإنسان على البحث فى العلل والمعلولات وربما كانت أعرق فى الوجود - كما يقول هيكلم - من كل فكرة أخرى « فلما جاءت الأديان عرضت لها كظاهرة وردتها إلى الإرادة الإلهية التى تحكم القانون الكلى للأشياء والظواهر وتركت للإنسان حرية التفكير فيها ليدرك من سرّها ما يستطيع عقله القاصر أن يدرك . ويفسرّها بقدر ما يجد لها من تفسير فقد خلق الله هذا الكون العظيم بما حوى ولكنه تعالى لم يقل لنا كيف خلقه وعلى أى صورة صوّره إلا ما نرى منه، وترك لنا أن نتأمل وننظر ونبحث ونصل إلى بعض هذا القانون - ولن نصل إلى كلّ - لتكون لنا

(٥٣) الملك ، ٣ ، ٤ .

(٥٤) الروم : ٢٥ .

(٥٥) النور : ٣٥ .

(٥٠) الأنعام : ٥٩ .

(٥١) النور : ٤٢ .

(٥٢) النور : ٤٣ ، ٤٤ .

بعض السيطرة عليه وعلى قدر ما تصل إليه قدرتنا من أفاق الكون مسخرًا لنا وفي خدمتنا نحن الإنسان الذي كرمه تعالى وفضله على جميع خلقه.
(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً^(٥٦)).

وهذا الإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير من خلق تفضيلاً قد سخر له ما في السموات والأرض لخدمته وراحته قد ترك الله له المقدرة على تسخيرها وكيف يسخرها بما وهبه من عقل وتفكير ميزه بها على بقية خلقه « ليرى من قدرة الله على ضوء المعرفة ما لا يراه في دياجير الجهل ».

وما يصيب الإنسان في حياته مما يخضع لهذه القاعدة فما هو من سنة الكون الكلية كالخلق والحياة والموت فمردها إلى هذا القانون الكلي الذي يحكمها وما هو من الجزئيات كتسخير الحيوان لخدمة الإنسان واختراع الآلة والسيطرة على بعض الظواهر بالكشف عن القانون الذي يحكمها فأمره إلى الإرادة الإنسانية فالكهرباء طاقة لا ندرك حقيقتها ولكننا ندرك كيف نذلها وكيف نسخرها لمنفعتنا بالكشف عن القوانين التي تحكمها وتسيطر عليها. والخلق والحياة والموت هي الأخرى من تحت الإرادة الإلهية إلا أنها بدورها مما يخضع لهذا القانون الكلي. فهذا الكون اللانهائي لا تدرك الأبصار أو الفكر مداه تحكمه قوانين أزلية ثابتة نعجز بعقلنا القاصر أيضاً عن تصور مدى دقتها، فإذا تصورنا توقف جرم من الأجرام عن مسيرته الأزلية وحركته الدائمة في هذا الكون لجزء من الألف في الثانية مثلاً لأحدث توقفه هذا على ضآلته من الآثار ما ليست لنا قدرة على تصوّره في نظام الكون، وقد يكون في هذا التوقف هلاك هذا الجرم ودماره. والحياة والموت مما يخضعان لهذا القانون الكلي في وجودهما اللامتناهي ولكن الحياة لا تخصب ما لم تتوفر لها مقومات معينه والموت وإن كان أزلياً وقدرًا مكتوباً - فلكلّ أجل كتاب - فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، إلا أن له أسبابه من مرض أو نوازل عارضة مما لا يدخل في إرادة إنسان ولا يخضع لهواه حتى قتل النفس وإن بدا عملاً إرادياً فإنه لا يتم دون سبب يحكمه أو يدعو إليه من إرادة الإنسان ولكن الدواعي التي أدت إليها ليست من قبيل الاختيار أو الإرادة الحرة وإنما حكمتها عوامل عديدة لم يكن منها فكاك أو خلاص.

وقد تبدو حرية الاختيار فيما يتصل بحياة الإنسان وسلوكه واتجاهاته مما يخضع للإرادة الإنسانية خضوعاً تاماً ولكن الواقع يخالف ذلك فإن عدة إرادات إنسانية أخرى مما يؤثر

فيها وتتأثر بها فتتغير تبعاً لها اتجاهات الإنسان وسلوكه، فهذه الإرادة التي غلکها ليست إرادة مطلقة وإنما هي إرادة نسبية بقدر ما يتدخل فيها من إرادات الآخرين والظروف الاجتماعية التي تتصل بها وتؤثر فيها، فما من جيل إلا ويتحمل غير مختار آثار جيله السابق كما يحتمل غير مرید ضرور جيله. ثم إن الإرادة ذاتها لا تعمل حرة تمام الحرية من أى قيد نفسى أو فيولوجى أو بيئى من قبيل المصادفة ولعلنا نجد في هذا تفسيراً لانحراف بعض الأحداث التاريخية عن سيرها العام لنذهب لمذاهب شتى في تفسير أسباب ذلك فيقال إن الإنسان منفذ غير واع لإرادة الله ويقال «اليد الخفية» كما يرى «آدم سميث» و«مكر العقل كما يرى «هيجل» في تفسير القوى التي تدفع الإنسان للعمل من أجلها ولأجل غاياتها وإن ظن أنه يعبر عن ذاته ويحقق رغباته، وأخذ «تولستوى» بما يشبه هذا التعليل حين يقرر أن الإنسان يعيش واعياً لنفسه ولكنه أداة لا واعية لتحقيق الغايات التاريخية، وكل هذا هراء - كما قلت في كتابي التاريخ والسير - فالأحداث لا تحكمها إرادة الإنسان أو رغبة الجماعات فحسب وإنما يؤثر فيها ماضى الإنسان كما تتأثر بعديد من العوامل المتنافرة والمتسقة التي تتحكم في طبيعة المجتمع الإنسانى والتي تفوق في الغالب إرادة الإنسان وإن كانت من صنعه ومن نتاج تفكيره فالإنسان لا يعيش في عزلة مطلقة ينمحي فيها الفعل وردّ الفعل للإرادة الجماعية وإنما يعيش في زمن يتأثر بظروفه وفي مكان يتحكم في إرادته.

إلا أن هذا النصيب النسبي من حرية الإرادة هو ما تقع في دائرته الأعمال الإرادية للإنسان وفيها تتحدد مسؤوليته ويتحدد سعيه في الحياة. وهو على ضآلته حافز قوى لعمل الإنسان لتحقيق ذاته والتعبير عن إرادته، وهو الحد الفاصل بين الجبر والاختيار في الإسلام وبين القدرية وحرية الإرادة الإنسانية فقد «دعا الإسلام - كما يقول سيد أمير على - إلى الإيمان بقوة سماوية عليا تهيم على الكون، وقرن ذلك الإيمان ببيت روح الاعتماد على النفس وتقرير مسؤولية الإنسان عن عمله تأسيساً على حرية الإرادة الإنسانية، ومن مزايا القرآن الكريم أنه يجمع بصورة فريدة تبدو متناقضة بادئ الأمر بين وجود إرادة إلهية تهيم على جميع الكائنات وتؤثر في الناس وفي أفكارهم تأثيراً مباشراً وبين تأكيد حرية الإرادة الإنسانية وحرية التفكير وليست هذه الظاهرة بقاصرة على القرآن الكريم وحده فهى في الكتاب المقدس أيضاً، إلا أن مسؤولية الإنسان عن عمله جليلة واضحة في القرآن وإن تبادر هذا السؤال إلى الذهن: كيف يمكن التوفيق بين هذين الأمرين؟ إذ يبدو لأول وهلة أن ثمة تناقضاً بين محاسبة الإنسان على عمله وهى قوام الأخلاق الإسلامية ووجود قوة قادرة تسيطر على أعماله، ولكن الفكرة الإسلامية لا تفرق بين الإيمان بوجود إله حتى

قادر والإيمان بقدرة الإنسان على الارتقاء والكمال وهو ما يكشف لنا على هذه الحيرة ويفسرهما».

وهذا التناقض الظاهري هو ما حمل بعض المستشرقين على نعت الإسلام بأنه دين قدرى وأن الجبرية قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية فإذا كانت المعصية قدراً مقدوراً، فلم حساب الله عليها؟.

وهذا التفسير هو فرق ما بين الفكر الإسلامى والفكر الغربى فى إدراك هذا التناقض وفهمه فبينما يرى الغربيون الإرادة الحرة مقيدة بإرادات الآخرين وبالتنظيم الاجتماعى للأفراد أو بالخوف والشعور بالمسئولية يذهب الفكر الإسلامى إلى تقرير المسئولية تبعاً للإرادة الحرة والإدراك الكامل لعلاقة الإنسان بالكون ثم علاقته بالآخرين فمما يتصل بعلاقة الإنسان بالكون، وهى علاقة أزلية غير خاضعة للزمان والمكان، خلقه وحياته ومماته وكل ما يتصل بذلك من حياته الدنيا وإن كان ذلك كله وفقاً لقانون ثابت لا يتغير هو الذى خلق الله به وعليه هذا الكون الهائل الذى لا تدركه الأبصار ولا تعيه العقول وهذا القانون هو الذى يكون السببية وهى العلاقة بين الفعل والقانون الذى يحكمه « فكل شئ قد خلق بقدر»:

(الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديراً^(٥٧)).

(إنا كل شئ خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر^(٥٨)).

(إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً^(٥٩)).

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون^(٦٠)).

ويرى سيد أمير على ، أن كلمة « قدر » هنا تعنى القانون الطبيعى أو ما نعتبه بالقانون الكلى الذى يحكم الخلق جميعاً وهو من آياته تعالى التى تعبر عن هيئته جل شأنه على كافة خلقه :

(ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيها من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير^(٦١)).

(٦٠) يس : ٣٧ - ٤٠ .

(٦١) التورى : ٢٩ .

(٥٧) الفرقان : ٢ .

(٥٨) القمر : ٤٩ - ٥٠ .

(٥٩) الطلاق : ٣ .

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير^(٦٦)).

(ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب، إن الله على كل شيء قدير^(٦٧)).

(وأخري لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً^(٦٨)).

(وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم^(٦٩)).

(وإننا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون^(٧٠)).

(والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يشى على بطنه ومنهم من يشى على رجلين ومنهم

من يشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير^(٧١)).

(وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً

محجوراً . وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً^(٧٢)).

(الله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير^(٧٣)).

كل هذه وآيات غيرها لتدل على هيمنة الله على كل شيء وأنه خالق الخلق الواحد

المتعال، خلقه بقدر على سنة لا تتحول ولا تبدل ثم استوى على العرش:

(إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش^(٧٤)).

وهذا القانون الإلهى سنة الله التى لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً هى التى تحكم الكون

وتسيّره من الأزل إلى الأبد والتى تحكم فى نطاقها الكونى مسيرة الإنسان وفيها عداها

فالإرادة الإنسانية حرة، والإنسان مسيطر مطلق فى نطاق وجوده المحدود، فقد زانه الله

بالعقل وهو جزء من وجوده الأعظم خلقه على صورته «فإنسان» - كتعبير العقاد - روح

علوى سقط إلى الأرض من السماء ليحمل مسئولية أعماله ووزر نفسه:

(بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره^(٧٥)).

فإن شاء ارتفع إلى أعلى عليين، وإن شاء هوى إلى أسفل سافلين.

(ويدع الإنسان بالشّر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً^(٧٦)).

ألا إن رحمة الله تسع كل شيء:

(٦٨) الفرقان : ٥٢ - ٥٤ .

(٦٩) المائدة : ١٢٠ .

(٧٠) الأعراف : ٤ .

(٧١) القيامة : ١٤ - ١٥ .

(٧٢) الإسراء : ١١ .

(٦٢) الأحقاف : ٣٣ .

(٦٣) النحل : ٧٧ .

(٦٤) الفتح : ٢١ .

(٦٥) الهجرة : ٢١ .

(٦٦) الحجر : ٢٣ .

(٦٧) النور : ٤٥ .

(قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم^(١٣٧)).

على أن يكون ذلك بالتماس العون منه تبارك وتعالى والتوجه إليه جلّ شأنه بقلب سليم:

(وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون^(١٣٨)).

فالله خالق كل شيء وله مفاتيح الغيب الحى القيوم الكبير المتعال لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، يسبح له من فى السموات والأرض، يحى ويميت وهو على كل شيء قدير، ويكل خلقه عليم، وسع كل شيء علماً، وكل شيء هالك إلا وجهه، فإذا أدركنا هذه القدرة إدراك بصير، لأدركنا كيف خلق الله الكون بنظام ثابت وسنة لا تبدل وأنه جعل لكل شيء سبباً فالحياة حقيقة هذا الوجود كله، ولكنها لا تنشأ فى فراغ، وإنما تخضع لقانون أزلى وترقى وتتطور وتتكيف وفقاً لهذا القانون، فبدون عملية التلقيح فى النبات لا يزهر ولا يثمر، وبغير اجتماع الحيوان المنوى للذكر إلى بويضه الأنثى فى الرحم لا يتم الحمل ولا يتكون هذا الجنين الذى يحمل صفات الأبوين، فتتحد منه إلى أبنائه وسلالته، كما انحدرت إليه صفات أجداده، وكلها تباعدت الصفات بتباعد القرابة بين الزوجين ضعفت الخصائص المشتركة بينها، لذلك كان زواج الأقارب مكروهاً وكان الزواج من الأدنى فى القرابة كالأخت والعمة والخالة وابنة الأخ وابنة الأخت محرماً.

والموت، كالحياة، حقيقة أزلية فكل شيء هالك إلا وجهه وهو قدر على كلِّ شيء، فقد جعل لكل شيء أجلاً لا ريب فيه حتى السموات والأرض لها أجلها المحدد فى علم الغيب، ولكل أمة أجلها (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وقد خلط المفسرون بين الموت قدراً مقدوراً على كلِّ شيء وبين تحديد الأجل، فالأجل محدود بقدرة الحى على البقاء والاستمرار فإذا فقد القدرة جاءه الموت، وما من شيء إلا ويفقد القدرة على البقاء والاستمرار فى يوم من الأيام فالمرض حين يصيب جسد الحى ولا يقدر على رده ينزل به الموت والجندى حين تصيبه رصاصة قاتلة تميته، وحين يدهم القطار إنساناً أو دابة يقتلها وحين تهوى الطائرة محترقة يقضى على من فيها. فإذا نجا ناج فلسبب خرج به من الخضوع للأسباب التى أدت بالآخرين إلى الموت، وحينذاك نقول إنه نجا بمعجزة. وقد أثبت العلم الحديث أن الشمس تذوى وتذبل يوماً بعد الآخر، ولكن على أى مدى تخفت إلى الأبد؟

هذا ما يعلمه الله وإن اجتهد العلم في تقديره وقياسه بالسنين والأرقام التي لا تدرك الحقيقة ما دام العلم قاصراً على الشمول والإدراك الكامل وهما لله وحده فمهما بلغ علم الإنسان فما أوتي من العلم إلا قليلاً فالحياة سائرة إلى زوال ولكنها خاضعة لقانون أزلي يحكم الحياة كما يحكم الموت، وهذا القانون الأزلي هو من صنع القدرة الإلهية أو هو جماع الخلق كله وهو ما نسميه بالقدر وحين تغفل عنه نصفه بالجبرية، وما عدا ذلك مما يتعلق بمسيرة الإنسان وعمله على الأرض فمن صنع الإنسان وحده سواء كان منه وحده أم شاركه فيه غيره فإرادته حينئذ تتأثر بإرادة غيره فرداً أو جماعة فليست هناك إرادة حرة مطلقة للإنسان ما لم يتحرر من مؤثرات الماضي والحاضر والبيئة والوراثة ولن يتحرر منها فهي قيد حياته ووجوده. تتحدد بها مسئوليته وبحاسب على إرادته عنها بقدر ما تتحكم فيه وتحكمه فقيل بالضرورات نبيح المحظورات، وفي قوله تعالى:

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم^(١٧٥)).

فالإرادة الإلهية حرة مطلقة منزهة غير باغية فهي حكمة الوجود وإن غابت عنا أسبابها فإذا أدركناها عقلناها وقلنا ما ندركه منها، «ولا يقال - كما يرى الإمام محمد عبده - إن غاية حكمته الوجوب عليه لأنه هو جاعل الغاية، وكون الغاية غاية، لأنه المبدع الذي لا يتأثر بشيء، ولا يحكم عليه أمر ما أراده».

فغاية ما يدركه المرء - كما يقول الإمام - «أن في الكون قوةً أسمى من أن تحيط بها قهرته، وأن وراء تدبيره سلطاناً لا تصل إليه سلطنته، فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يعرفه على مقتضى علمته وإرادته، خضع وخضع ورد الأمر إليه فيها بقي، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيها بقي، فالمؤمن كما يشهد بالدليل والعيان يرى أن قدرة مكوّن الكائنات أسمى من قوى الممكنات، ويشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية، عقلية كانت أو جسمانية، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيها خلقت لأجله» ويقرر في ذلك «أمرين عظيمين» يراها «ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية»:

«الأول: أن العبد يكسب بإرادته وقدرته، ما هو وسيلة لسعادته».

«والثاني: أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريد وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمدّ العبد بالمعونة فيها لم يبلغه كسبه».

فالإنسان حرٌّ في إرادته ومسيطر مطلق - في إطار وجوده المحدود - على أعماله مسئول عنها ومحاسب عليها.

(ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه. وكان الله عليماً حكيماً . ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً^(٧٦).)
(قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها وما أنا عليكم بوكيل^(٧٧).)
(.. فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٧٨).)

وفما يروى عن الفاروق عمر ما يدنيننا من هذه الحقيقة، فما نجد بياناً أجلى من بيانه ولا أحلى وهو يردّ بها على أبي عبيدة بن الجراح فقد روع الناس الطاعون في الشام وأخذ يفتك بهم فتكاً شديداً وكان عمر في طريقه إلى الشام لينظم شئونهم بعد فتحه فلقبه عند سرع على مقربة من تبوك بعض أمراء الجند وفيهم أبو عبيدة وعلم منهم أنباء الطاعون وفتكه بالناس، فاستشار من معه من المهاجرين والأنصار في المسير أو العودة واختلف القوم فيما بينهم فمن قائل: خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده، ولا نرى أن يصدّك عنه بلاء عرض لك، وقائل: إنه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه، فجمع إليه مهاجرة الفتح من قريش واستشارهم فأجمعوا على العودة، ونادى فيهم عمر بعد أن صلّوا الصبح قائلاً: إني راجع فأرجعوا» ولم يكن أبو عبيدة ممن حضر مشاورات عمر، فلما عرف ذلك قال له: «أفراراً من قدر الله يا عمر؟» ونظر عمر إلى أبي عبيدة عاتباً وهو يقول: «لو غيرك يقول هذا ياأبا عبيدة؟ نعم: فراراً من قدر الله إلى قدر الله» ثم أردف بعد إطراقة «أرأيت لو أن رجلاً هبط وادياً له عدوتان إحداها خصبة والأخرى جربة، أليس يرعى من رعى الجربة بقدر الله، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله.»
«نعم، فراراً من قدر الله إلى قدر الله.»

أى بيان أروع من هذا؟ فإن ما عناه عمر هو الفرار من قدر مدرك إلى قدر غير مدرك. يتوقّى في الأول ما يعرف أنه ملاق حَقاً، وأن هذا الذي يلقاه قد يعرضه للهلاك حتّى فعلية ألا يلقى بنفسه إليه كمن يتوقّى ضربة السيف بدرعه أو بحركة من جسمه لأنه يعرف إن إصابته فستقتله، وذلك معنى قوله تعالى: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة). وفي الثاني لا يستطيع أن يتوقّى ما لا يعلم وما يخرج عن إرادته فإذا عضته حية لم يرها ليتقيها

أو يقتلها، فإن أذى الحية قد ناله غضباً عنه ومن غير أن يكون لإرادته دخل فيه، وعليه أن يلجأ إلى الترياق من سمومها، فإذا غلبه السم فقتله فذلك إرادة الله ممثلة في قانونه الأزلي الذي يحكم الأشياء والذي جعل سم الحية قاتلاً، فمن يصيبه قتله ومن لحقه بالعلاج برئ منه وقد لا يصيب العلاج فيكون هلكه، وهذا هو القدر الذي لا منجاة منه لأن الإنسان لا يعرف كيف يتقيه فإذا عرف أصبح مما تحكمه إرادته وحق عليه أن يلوذ بإرادته ليقى نفسه السوء. فمئذ سنوات كانت حمى التيفود تمت من تصيبه في الغالب فلما عرف الإنسان كيف يقى نفسه منها لم تعد بذات خطر وأصبحت مما تحكمها إرادته، والحنأق أو الدفترية هي الأخرى كالتيفود، وقد خلق الله ميكروب التيفود وميكروب الدفترية وخلق أيضاً ما يتقيها به فلكل شيء ضده ولكل سم ترياقه وعلى الإنسان أن يسعى - وقد زانه الله بالعقل - ليقى نفسه من غوائل محيطه. فالإرادة الإنسانية بعض من الإرادة الأزلية وإن كانت لا تبلغها ولن تبلغها أبداً، ولكنها تبلغ منها ما تستطيع به السيطرة على ما يتصل بالإنسان في محيطه المحدود من هذا الكون الهائل العظيم الذي لا تدركه الأبصار ولا تصل إلى صورته العقول مهما امتد بها الفكر أو شطح بها الخيال وحيث تنهاى الحرية عند العبد لا تنهاى عند الخالق.

فالقضاء في العقيدة الإسلامية هو ما اتصل بسنة الكون منذ خلق الله الكون وهو قانون أزلي ثابت لا يتغير يؤثر في الإنسان ويتأثر به دون أن يكون له دخل فيها وهبه الله من عقل يسوس به أمره فبقدرته هذا العقل على الإدراك تجب التكاليف، وهي مما لا يقع أو يجب على فاقد العقل أو ناقص الإدراك، بل إن من التكاليف الدنيوية ما يعفى منها صاحب العاهة الذي تحول عاهته دون قيامه بها:

(ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج...) (١٧٩).
(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل، والله غفور رحيم...) (١٨٠).
(.. وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً...) (١٨١).

ويرى الإمام محمد عبده أن فعل العبد ما لم يكن له لبطل تكليفه به «إذ لا يعقل أن يدعى شخص إلى ما لا يقدر عليه. وأن يكلف ما لا أثر لإرادته فيه. ولو كان فعل القاتل

ليس له لا متنع القصاص، ولم تكن فيه لنا حياة، فالعقل والشرع والحس والوجدان متضافرة على أن فعل العبد فعله. وكون جميع الأشياء راجعة إلى الله تعالى ووجود الممكنات إنما هو نسبتها إليه ... ولا يتصور اعتبارها موجودة إلا إذا اعتبرت مستندة إليه مما قام عليه الدليل بل كاد يصل إلى البدهة كذلك، ومثل هذا يقال في عظم قدرة الله تعالى وأنه إن شاء سلطنا من القدرة والأختيار ما وهبنا فهو أمر نشاهده كل يوم، ندير شيئاً ثم يأتي من الموانع من تحقيقه ما لم يكن في الحسبان، وتتناول عملاً ثم تنقطع قدرتنا عن تنميته كل ذلك لا نزاع فيه، شمول علم الله لما كان ولما يكون، قام عليه الدليل ولا شبهة فيه عند الملمين، فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحو الذي يعلمه، وأن يقر بنسبة عمله إليه كما هو بديهي عنده، ويعمل بما أمره به ويحنتب ما نهاه عنه باستعمال ذلك الاختيار الذي يجده في نفسه، وليس عليه بعد ذلك أن يرفع ببصره إلى ما وراءه، فقد نعى الله على المشركين قولهم - لو شاء الله ما أشركنا ولا آبأؤنا ولا حرمنا من شيء - ووردت الأحاديث متواترة المعنى في النهي عن الخوض في القدر وسره.

وفي مقال له بالعروة الوثقى اقتبس منه «عثمان أمين» في كتابه عن الإمام ما يأتي: «كل ما حدث له سبب يقاربه في الزمان، والإنسان لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه، ولا يعلم ما فيها إلا مبدع نظامها، وإن لكل منها مدخلاً ظاهراً فيها بعده، وإرادة الإنسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة، وليست الإرادة إلا أثراً من آثار الإدراك، والإدراك انفعال النفس مما يعرض على الحواس، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة ما لا ينكره أبله فضلاً عن عاقل، وإن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة، إنما هي بيد مدير الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له». ولا نرى بيننا وبين الشيخ الإمام خلافاً على ذلك فما هو خاضع لسنة الكون فحده إلى خالق الكون وهو القضاء وهو ما يرادف «الاحتمية» في تفسير الماديين للعلوم الإنسانية والقانون العلمي في تفسير الظواهر الطبيعية وما هو خاضع لمشيئة الإنسان وإدراكه وتفكيره فحده إليه وهو مكلف به مسئول عنه محاسب عليه، وليس فيما جاء به القرآن الكريم من آيات في هذا المنحى إلا ما يدل على أن الله قد جعل لكل شيء سبباً وتنتاهى هذه السببية أو العلوية إلى قانون شامل هو سنة الكون التي لا تتبدل ولا تتحول لأنها القانون الإلهي الذي صاغ عليه الكون وسيره منذ الخليقة وقبل الخليقة وهو ما لا يدركه الإنسان - كما قلنا - وإن خلق الله له العقل لإدراك بعضه ليدلله لنفعه ويسيطر به على ما يتغيه من محيط حياته إذ كرمه الله على خلقه وخلق كل شيء لنفعه، واتصال العقل بهذا القانون

الإلهى هو الحرية : حرية النظر والتأمل والكشف عن أسرار هذا الكون ما يمكن الإنسان من السيطرة على الطبيعة وفى هذا المعنى تتأكد حرية الإرادة الإنسانية كما تتأكد مسئولية الإنسان عن أفعاله.

فالعقيدة الإسلامية ليست مما ينتهى بالإنسان إلى التواكل وفرق ما بين التوكل والتواكل ، فالتوكل على الله ما هو إلا إيمان بقدرة الخالق وهو صلة ما بين الإنسان وربّه يستلهمه الرشاد والهداية وسداد الخطى والتوفيق فى العمل ، فإذا اقترن العمل بالتوكل على الله فمن قبيل الاستمرار حتى لا يفغل العبد عن ذكر الرب، وأما التواكل فمن قبيل ترك أمور على عواهنها وسلب الإرادة الإنسانية ما أودعها الله من قدرة وتطلع وما هو إلا بهتان ليس من الدين فى شيء.

وحين يرشد الإنسان إلى سبيله وغايته فى الحياة بالإيمان بالله تطيب له الحياة وتتقدم الحياة على يديه فما كان الدين إلا هدياً ورساداً وضع الله به الإنسان على أولى درجات المعرفة وقد جاء الإسلام فاكتملت به رسالة السماء وتمت به نعمة الله على الناس إذ فتح لهم مغاليق الكون ودعاهم إلى النظر والتأمل وعلمهم ما لا يعلمون وكان أول ما خاطبهم به فى خطابه لخاتم أنبيائه قوله جل وعلا:

(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم^(٨٢)).

الإسلام والأخلاق

والأخلاق الإسلامية مما تنزه بها الحياة عن الدنيا والشور، ويستقيم عليها أدب النفس وأدب السلوك. والقرآن حافل بما تتحلّى به النفس من قيم الأخلاق وبما يجب أن يكون عليه سلوك البشر، وبالنهى عما يجترح من هذه القيم أو ينال منها أو يتناول عليها أو يخذلها أو يكون سبباً من أسبابها أو يؤدى إليها، كما نهى عما يسىء إلى البدن حفاظاً على الصحة، وعما يسىء إلى العقل حفاظاً على سلامة الإدراك وعما يشوّه جسم الإنسان توقيراً للكرامة الإنسانية فى حالتى الحياة والموت.

ولسنا بصدد تعداد المثل الأخلاقية لأدب النفس وأدب السلوك فى الإسلام مما أجمعت عليه الأديان ولا تختلف عليه فلسفة الأخلاقيين فردتها إلى عالم الضمير وإلى المنطق التجريدى بينما نقلها الإسلام من عالم الضمير إلى عالم الحسّ ومن التجريد إلى الواقع

المحسوس فكانت فرضاً من فروضه لا يكمل بدونها إيمان الإنسان ولا يستقيم بغيرها سلوك المرء ولا تقوم الحضارة الإنسانية على أساس سليم إلّا بها، فالرحمة والبرّ والتعاطف والحياء والتواضع والفضائل على أنواعها قد تبدو من قبيل التجريدات التي تتفاوت فيها القيم وتختلف حولها المعايير والحدود، ولكن الإسلام أقام لها المعايير وقاس عليها سلوك الإنسان أمام الله وأمام الناس، فما كان منها من أدب النفس ضرب له المثل ظاهراً من واقع الحياة، وما كان منها من أدب السلوك فرض له المعايير والحدود وجعل منها جميعاً هدى الإيمان ونبراسه.

والأساس الديني للأخلاق الإسلامية هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبما أمر به تعالى من قواعد لأدب النفس وقواعد السلوك للفرد والجماعة، فالإيمان بالله يتضمن الإيمان بكل ما جاء به، وحين ينبع الخير من ضمير المؤمن يتجرد من كل نوازع الأنانية وحب المنفعة وغرائز الشر الكامنة في النفس البشرية، فالدين سياج الأخلاق، «ولو لم يضع الدين - كما يقول ميرزا على محمد حسين - قوانين كاملة للأخلاق لما نجح في الارتقاء بالإنسانية أوفى منع الشرور» وحين تتجرد الأخلاق من الدين تفقد جذورها الأصيلة في النفس الإنسانية، وهي جذور تمتد في ضمير الإنسان إلى أبعد آماذ تاريخه قبل أن تشرق الأرض بنور الأديان السماوية حين كان يلوذ بما يتصور من قوى خفية ينشد الخير على يديها ويتجنب بقدرتها الشرور، فهذا الوازع القديم في ضمير الإنسان قد هذبه الأديان السماوية ورددته إلى الصفاء الروحي المنبعث من الإيمان بالله وبعقيدة البعث يوم تجزى كل نفس بما كسبت. والأخلاق الإسلامية مما تتواءم مع الحياة الدنيا، ومما يقوم عليها مجتمع إنساني سليم فليس فيها إغراق أو تطرف يحملها إلى عالم التجريد وليس فيها ما يحمل الإنسان فوق طاقته، وإنما هي من واقع حياة المسلم ما تستقيم معها حياته على الخير، ويستقيم بها عقله على الإيمان. إذ جمع الإسلام بين المثالية الرفيعة والواقعية التي تتفق مع العقل فلا يغفل الطبيعة البشرية ولا يسرح في تهويمات ضالة ملتوية، بعيداً عن الحقيقة والواقع، بل ينشد كسائر الأديان السماوية السمو بالإنسانية إلى ذروة الكمال المطلق، ولكنه إذا حقق ما ينشد أو حاول تحقيقه يعلم تماماً أن الإنسان قد جبل على النقص في حياته الدنيا، فإذا لم يقل إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، وقال بمعاقة المسيء بمثل ما عاقب به، فقد رغب أشد الترغيب في العفو عن المسيء والإحسان إليه ودرء السيئة بالحسنة في قوله تعالى: (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم)^(٨٢).

وإذا أردنا أن نلتبس عبارة جامعة للأخلاق الإسلامية التمسناها في قوله تعالى :
 (كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله^(٨٤)).
 فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله هي الثلاثة قوام الأخلاق الإسلامية،
 فإذا ترجناها إلى واقع الحياة ومحسوسها لأسعفنا القرآن بتفصيلها في قوله تعالى :
 (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون
 الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله^(٨٥)).
 (يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً
 ويتيمماً وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً^(٨٦)).
 (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة
 ولا شفاعة^(٨٧)).

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى^(٨٨)).
 (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم^(٨٩)).
 (وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيماً ذا مقربة .
 أو مسكيناً ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة^(٩٠)).
 (وأت ذا القربى حقه والسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً^(٩١)).
 (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان
 مسئولاً وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم^(٩٢)).
 (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن^(٩٣)).

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین^(٩٤)).
 (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم
 الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن
 السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا
 والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون^(٩٥)).
 (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما

(٩٠) البلد : ١٢ - ١٧ .

(٩١) الإسراء : ٢٦ .

(٩٢) الإسراء : ٣٤ - ٣٥ .

(٩٣) الإسراء : ٥٣ .

(٩٤) الأعراف : ١٩٩ .

(٩٥) البقرة : ١٧٧ .

(٨٤) آل عمران : ١١٠ .

(٨٥) التوبة : ٧١ .

(٨٦) الإنسان : ٧ - ٩ .

(٨٧) البقرة : ٢٥٤ .

(٨٨) البقرة : ٢٦٤ .

(٨٩) البقرة : ٢٧١ .

أو كلاهما فلا تقل لها أف ولا تنهرها وقل لها قولاً كريماً . واخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً^(١١٦).
(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً..^(١١٧)).

وفي النهي عن المنكر:

(ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً^(١١٨)).
(ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً^(١١٩)).
(ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم^(١٢٠)).
(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها^(١٢١)).

(وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون^(١٢٢)).
(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن^(١٢٣)).

(قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون^(١٢٤)).
(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين^(١٢٥)).

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون^(١٢٦)).

وتلهمنا الأخلاق الإسلامية بما يمكن أن نسميه ثقافة أخلاقية بصفاتها أساساً لأدب النفس وأدب السلوك وأساساً لحضارة إنسانية تقوم على التزاوج بين الروح والعقل فحيث يسمو الخلق الإسلامى بمبادئه إلى أعلى ما ينشده الإنسان من المثالية الروحية نراه يوفق بين ما هو أبدى وما هو متغير، فحيث يتصل الإنسان بالذات الإلهية اتصال إيمان ويقين فإنه

(١٠٢) الأنعام : ١٢٠ .

(١٠٣) النساء : ٣٢ .

(١٠٤) الأعراف : ٣٣ .

(١٠٥) الأعراف : ٥٦ .

(١٠٦) النحل : ٩٠ .

(٩٦) الإسراء : ٢٣ ، ٢٤ .

(٩٧) الأحقاف : ١٥ .

(٩٨) الإسراء : ٣٢ ، ٣٣ .

(٩٩) الإسراء : ٣٧ .

(١٠٠) طه : ١٣١ .

(١٠١) التور : ٣٠ ، ٣١ .

يخلص لما هو أبدى دائم لا متناهى غير متصل بحدود الزمان والمكان، وحيث يؤمن بآياته فإنه يؤمن بما فيها من تنوع وتغير ويتكيف معها في تنوعها ويتواءم معها في تغييرها ولكنها في تغييرها لا بد وأن تخضع لما هو أبدى منها، فالمبادئ والمثل لا تتغير فهي أبدية دائمة ولكن الصورة التي تلتزم بها وتتفاعل معها هي التي تتغير فالأخلاق الإسلامية في ثباتها تثبت قدرتها على التطور بما تلهم من ثقافة أخلاقية متجددة مع الزمان والمكان في ضوء يقينها الثابت الذي لا يتغير.

وهذه القدرة على التوفيق بين ما هو أبدى وما هو متغير هي التي حملت الشاعر الفيلسوف محمد إقبال على القول « بأن نبي الإسلام يقوم بين العالم القديم والعالم الحديث فهو بتاريخ رسالته ومصدرها من العالم القديم وبالروح التي انطوت عليها من العالم الحديث » .

« وهذه القدرة ذاتها هي التي تجعل من الأخلاق الإسلامية أخلاقاً صالحة لكل زمان ومكان، وهي مصداق لختم النبوة نفسها ليقينها من استحالة بقاء الوجود معتمداً إلى الأبد على ما يقوده، وعلى الإنسان كي يدرك كمال معرفته بنفسه ينبغي أن يترك ليعتمد على وسائله في إدراكها. وإن خلو الإسلام من الرهينة ووراثته الملك ومناشدة القرآن للعقل وللتجربة على الدوام وإصراره على النظر في الكون والوقوف على أخبار الأولين من مصادر المعرفة الإنسانية كل ذلك صور مختلفة لفكرة ختم النبوة ».

وبقدر ما تتواءم المثل الإسلامية مع كل ما هو دائم وما هو متغير بقدر ما تتواءم مع الفرد في ذاته والفرد بوصفه عضواً في مجتمع، فلا تضحي بالفرد في سبيل الجماعة ولا تطلق للفرد عنان الحرية ليستغل الآخرين ويستعلى عليهم فإذا استقام الإنسان تحرر من الأنانية وتحرر من الطغيان وتحرر من العنف وتحرر من عبادة الفرد وتحرر من الخوف والعوز. فهي أقوم مثال للحياة في كمالها المطلق، وللدولة بوصفها مثلاً للضمير الاجتماعي للأمة في قوته وتماسكه.

والأخلاق الإسلامية التزام أكثر منها أوامر ونواهي فهي تقوم على الإيمان بالله وحب الله وطاعة الله والولاء لله فما لم يكن الإيمان أساس الطاعة والحب أساس الولاء لم يكن القهر حافزاً على الالتزام، لأنه إذا ما غاب القهر غاب معه الالتزام. « فالالتزامات الأخلاقية في الإسلام - كما يقول ميرزا محمد حسين - ترمي إلى تزويد المؤمن بصفات الله الحسنى والارتفاع به فوق الشك والخيرة التي تسيطر على من يزاوِل حياة لا قيود فيها ولا التزام » ولهذا يرى «ول ديورانت» أن «القانون والأخلاق في القرآن شيء واحد. فالسلوك الديني

يتضمن السلوك الدنيوى والقرآن يشمل قواعد للأداب وصحة الجسم والزواج والطلاق ومعاملة الأبناء والعبيد والحرب والسلام، وللقرآن - كما يقول - أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي إذا أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية وحضهم على اتباع القواعد الصحية وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ونفوسهم من الظلم والقسوة وحسن أحوال الأرقاء وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة وطبع المسلمين - إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين - على الاعتدال والبعد عن الشهوات إلى حد لم يكن له أى مثيل في أية بقعة من بقاع لعالم يسكنها الرجل الأبيض. وعلم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ويتحملوا قيودها فلا شكوى ولا ملل وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله، وشرح القرآن الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله فالأخلاق الإسلامية هي التي فتحت القلوب المغلقة للإسلام فلم تمض بضعة سنوات على بعث الدعوة حتى أصبح الإسلام عقيدة الملايين من البشر ولم يمض قرن من الزمان حتى ارتفعت راية الإسلام في أرجاء العالم القديم وأوقع أبناء البادية الهزيمة بجيوش كسرى وقصر .

وما زال الإسلام بما فيه من مزايا يقدمها لبنية - كما يقول ولفرديلنت في كتابه مستقبل الإسلام - قادراً على اجتذاب الناس إليه « وهي مزايا تفوق كل ما تستطيع المسيحية والحضارة الأوروبية أن تقدمه. فبينما لا يجد المبشر وهو يتعثر بدعوته وسط الأدغال الأفريقية ما يمنحه للأفريقي الأسود إلا ما يمنيه به من أخوة في الحياة الآخرة ويضن عليه بالكرامة ولا يقبل أن يجالس أو يتزوج من زنجية يتقدم المبشر المسلم من أبناء مراكش فيقول للزنجية تعال اجلس معي خذ ابنتي زوجة لك واعطني ابنتك فكل من ينطق بشهادته الإسلام كفاء لي في الدنيا والآخرة » ويقول : « إنه لا مفر من أن تصبح أفريقية لقمة سائغة للإسلام وما ذلك ببعيد » .

وما الحياة بأشد حاجة إلى تعاليم الإسلام كحاجتها اليوم، إذ عجزت المسيحية الغربية عن أن تمد حضارة الغرب - حضارة العلم والآله والسيطرة على أسرار الطبيعة - بالقيم الروحية التي تمنحها القوة والاستمرار.

مراجع للبحث والاطلاع

obeikandi.com

١ - المراجع العربية

(١) المعاصرة :

- * طرق القضاء في الشريعة الإسلامية أحمد إبراهيم
- * فجر الإسلام أحمد أمين
- * ضحى الإسلام أحمد أمين.
- * ظهر الإسلام أحمد أمين.
- * الطاقة الإنسانية أحمد حسين
- * في الإيمان والإسلام أحمد حسين.
- * الأمة الإسلامية أحمد حسين
- * تاريخ الإنسانية أحمد حسين
- * تاريخ الحضارة الإسلامية أحمد زكي باشا
- * النظريات السياسية الإسلامية د. ضياء الدين الريس
- * حرية الفكر في الإسلام عبد المتعال الصعيدي
- * التوجيه الأدبي للعبادات في الإسلام عبد المتعال الصعيدي.
- * السياسة الإسلامية في عهد النبوة عبد المتعال الصعيدي
- * السياسة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين عبد المتعال الصعيدي
- * الإسلام دعوة عالمية عباس محمود العقاد
- * الديمقراطية في الإسلام عباس محمود العقاد
- * الفلسفة القرآنية عباس محمود العقاد.
- * الله
- * حياة محمد د. محمد حسين هيكل
- * الصديق أبو بكر د. محمد حسين هيكل
- * الفاروق عمر د. محمد حسين هيكل
- * الإمبراطورية الإسلامية والأماكن المقدسة د. محمد حسين هيكل

- * جاك جاك روسو د. محمد حسين هيكل
- * في الأدب الجاهلي د. طه حسين
- * الفتنة الكبرى د. طه حسين
- * الشيخان د. طه حسين
- * على وبنوه د. طه حسين
- * حديث السندناد القديم د. حسين فوزى
- * السياسة والإستراتيجية فى الشرق الأوسط د. حسين فوزى النجار
- * وحدة التاريخ العربى د. حسين فوزى النجار
- * الفكر السياسى الحديث د. حسين فوزى النجار
- * التاريخ والسير د. حسين فوزى النجار
- * أرض الميعاد د. حسين فوزى النجار
- * هيكل وحياة محمد د. عماد عبد الحميد النجار
- * التطور التاريخى لبنى إسرائيل د. حسين فوزى النجار
- * قصص الأنبياء د. حسين فوزى النجار
- * الخلفاء الراشدون د. حسين فوزى النجار
- * بحوث فى تاريخ الفكر الاقتصادى د. سعيد النجار
- (محاضرات)
- * تاريخ الآداب العربية كارل بروكلمان وترجمة د. عبد الحليم النجار
- * الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام د. عبد الرحمن بدوى
- * محمد المثل الكامل محمد أحمد جاد المولى
- * الإسلام دين الفطرة الشيخ عبد العزيز جاويز
- * الإسلام الصحيح محمد إسعاف النشاشيبي
- * نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة أحمد تيمور باشا
- وانتشارها
- * تاريخ التمدن الإسلامى جورجى زيدان
- * بناء النهضة العربية جورجى زيدان
- * تاريخ الإسلام السياسى ٣ أجزاء د. حسن إبراهيم حسن

- * النظم الإسلامية
- * السياسة الشرعية
- * الخلافة أو الإمامة العظمى
- * تاريخ الأستاذ الإمام
- * تفسير المنار
- * أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة
- * الأخلاق عند الغزالي
- * التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق
- * فى ظلال القرآن
- * العدالة الاجتماعية فى الإسلام
- * نحو مجتمع إسلامى
- * الإسلام ومشكلات الحضارة
- * أبو عثمان الجاحظ
- * لماذا تأخر المسلمون
- * القضاء فى الإسلام
- * الإسلام وأصول الحكم
- * نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم
- * حقيقة الإسلام وأصول الحكم
- * العقيدة والشريعة الإسلامية جولد سيهر
- * تاريخ الفلسفة الإسلامية دى بور
- * حاضر العالم الإسلامى
- * تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية
- * تاريخ الأمم الإسلامية
- * تاريخ التشريع الإسلامى
- * الإسلام والنصرانية
- * رسالة التوحيد
- * الإسلام فى عصر العلم
- * الإسلام دين عام خالد
- * د. حسن إبراهيم حسن
- * الشيخ عبد الوهاب خلاف
- * السيد محمد رشيد رضا
- * السيد محمد رشيد رضا
- * السيد محمد رشيد رضا.
- * رفيق العظم بك.
- * د. زكى مبارك
- * د. زكى مبارك
- * سيد قطب
- * سيد قطب
- * سيد قطب
- * سيد قطب
- * د. محمد عبد المنعم خفاجى.
- * الأمير شكيب أرسلان.
- * د. عطية مصطفى مشرفة.
- * على عبد الرازق.
- * الشيخ محمد الحنظلر حسين
- * الشيخ محمد بخيت
- * ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين
- * وترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة.
- * ستودارد وترجمة عجاج نويهض .
- * وتعليق شكيب أرسلان.
- * الشيخ مصطفى عبد الرازق.
- * الشيخ محمد الحنظلر.
- * الشيخ محمد الحنظلر.
- * الإمام الشيخ محمد عبده.
- * الإمام الشيخ محمد عبده.
- * محمد فريد وجدى
- * محمد فريد وجدى

- * دائرة معارف القرن العشرين
- * النظريات والمذاهب السياسية
- * موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه
- * الرسالة الخالدة
- * بطل الأبطال
- * أزمة الفكر السياسي في الإسلام
- * نظام الحكم في الإسلام
- * عصر المأمون
- * فتح العرب لمصر
- * الخلافة والإمامة في الإسلام
- * السياسة عند العرب
- * خلفاء محمد
- * مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام
- * تراجم إسلامية
- * ابن خلدون
- * دولة الإسلام في الأندلس
- * الديمقراطية في الإسلام
- * التشريع الإسلامي الجنائي
- * فلسفة التشريع الإسلامي
- * الإسلام والحضارة العربية
- * الإدارة الإسلامية في عز العرب
- * تنظيم الإسلام للمجتمع
- * تاريخ المذاهب الإسلامية
- * العلاقات الدولية في الإسلام
- * التكافل الاجتماعي في الإسلام
- * تجديد الفكر الديني في الإسلام
- * الإسلام والتجديد في مصر
- * الحرية والديمقراطية والعلم
- * موجز تاريخ العالم
- محمد فريد وجدى
- د. مصطفى الخشاب
- أبو الأعلى المودودي
- عبد الرحمن عزام
- عبد الرحمن عزام
- د. عبد الحميد متولى.
- د. محمد يوسف موسى.
- محمد فريد الرفاعى.
- بتلر وترجمة محمد فريد أبو حديد.
- عبد الكريم الخطيب.
- عمر أبو النصر.
- عمر أبو النصر.
- محمد عبد الله عنان
- محمد عبد الله عنان
- محمد عبد الله عنان
- محمد عبد الله عنان.
- الدكتور عثمان خليل عثمان
- عبد القادر عودة.
- فتحي رضوان.
- محمد كرد على.
- محمد كرد على.
- الشيخ محمد أبو زهرة.
- الشيخ محمد أبو زهرة.
- الشيخ محمد أبو زهرة.
- الشيخ محمد أبو زهرة.
- محمد إقبال وترجمة عباس محمود.
- تشارلس آدمز وترجمة عباس محمود.
- همايون كبير وترجمة عثمان نوية.
- هـ. ج. ويلز وترجمة عبد العزيز جاويد.

- توماس كارليل وترجمة محمد السباعي
- توماس أرنولد.
- وترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين.
- فان فلوطن وترجمة د. حسن إبراهيم حسن.
- جولد سيهر وترجمة د. علي حسن عبد القادر.
- د. محمد جمال الدين سرور
- الدكتور عبد اللطيف حمزة
- محمد فؤاد عبد الباقي
- برتراند رسل وترجمة فؤاد كامل
- برتراند رسل وترجمة محمد بكير خليل
- برتراند رسل وترجمة عبد الكريم أحمد
- علي ماهر بك
- ول ديورانت وترجمة محمد بدران بإشراف
- جامعة الدول العربية
- أرسطو وترجمة أحمد لطفى السيد
- أرسطو وترجمة أحمد لطفى السيد
- أرسطو وترجمة أحمد لطفى السيد
- الأبطال
- الدعوة إلى الإسلام
- السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات
- في عهد بنى أمية
- المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن
- الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية
- الإعلام في صدر الإسلام
- المعجم المفهرس للقرآن
- مثل عليا سياسية
- السلطة والفرد
- آمال جديدة في عالم متغير
- القانون الدولي العام
- قصة الحضارة
- رسالة إلى نيقوماخوس
- الكون والفساد
- السياسة
- (ب) من التراث :
- الكامل في التاريخ
- الفرق بين الفرق
- فتوح البلدان
- كتاب الوزراء والكتاب
- الفصل في الملل والأهواء والنحل
- المقدمة
- وفيات الأعيان
- لابن الأثير
- البغدادى أبو منصور
- البلاذرى.
- الجهشياري وتحقيق مصطفى السقا وآخرين.
- ابن حزم
- ابن خلدون
- ابن خلكان.

- * تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة السيوطى.
- * حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة السيوطى.
- * الملل والنحل الشهرستانى.
- * الفخرى فى الآداب السلطانية ابن طباطبا.
- * السياسة الشرعية ابن تيمية.
- * الحسبة فى الإسلام ابن تيمية.
- * مناهج السنة النبوية ابن تيمية.
- * تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء هلال الصابى.
- * الإمامة والسياسة ابن قتيبة أبو محمد.
- * مروج الذهب المسعودى.
- * تاريخ الأمم والملوك الطبرى ، محمد بن جرير.
- * اختلاف الفقهاء الطبرى ، محمد بن جرير.
- * تفسير الطبرى الطبرى ، محمد بن جرير.
- * المنقذ من الضلال الغزالى ، أبو حامد.
- * التبر المسبوك فى نصيحة الملوك الغزالى ، أبو حامد.
- * إحياء علوم الدين الغزالى أبو حامد.
- * كتاب الولاية وكتاب القضاة الكندى.
- * الأحكام السلطانية الماوردى.
- * الأحكام السلطانية لأبى يعلى.
- * لسان العرب ابن منظور.
- * كتاب الفهرست ابن النديم.
- * كتاب فرق الشيعة التوبختى أبو محمد.
- * كتاب البلدان يعقوبى أحمد بن أبى أيوب.
- * تاريخ يعقوبى يعقوبى أحمد بن أبى أيوب.
- * كتاب الخراج أبو يوسف يعقوب.
- * فهرست كتب الشيعة الطوسى.
- * نيل الأوطار الشوكانى.
- * اتعاظ الخنفا بأخبار الخلفاء المقرئى.
- * المواعظ والاعتبار فى ذكرى الخطط والآثار المقرئى.

- * كتاب التاج في أخلاق الملوك
- * كتاب التنبيه والإشراف
- * الطبقات الكبرى
- * المغازى
- * كتاب قوانين الدواوين
- * زبدة كشف المسالك
- * كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
- * شرح العقائد النسفية
- * مختصر سياسة الحروب
- * الإشارة إلى من نال الوزارة
- * قانون ديوان الرسائل
- * نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب
- * صبح الأعشى في صناعة الإنشا
- * المناهج وشرحه
- * مقالات الإسلاميين
- * كلیلة ودمنة
- * كتاب الديات
- * صحيح مسلم
- * فتح الباری بشرح صحيح البخاری
- * سيرة سيدنا محمد رسول الله المعروفة بسيرة ابن هشام.
- الملاحظ أبو عثمان
- وتحقيق أحمد زكى باشا.
- المسعودى.
- ابن سعد.
- الواقدى أبو عبد الله.
- ابن مامى نشرة الدكتور
- عزيز سوربال عطية.
- الطاهرى.
- أبو شامة المقدسى.
- التفتازانى سعد الدين.
- ابن هرثمة صاحب المأمون.
- ابن منجب.
- ابن منجب.
- القلقشندي محمد.
- القلقشندي أبو العباس.
- النوى والرملى.
- الأشعرى.
- ابن المقفع.
- الضحاك والشيبياني.
- بشرح النوى.
- ابن حجر العسقلاني.

(ج) المراجع الإنجليزية :

- Adams, Charles :
- Islam and Modernism نقله إلى العربية عباس محمود
- Arnold, Sir Thomas W.
- The Preaching of Islam. نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرون.
- The Caliphate.
- Ameer Ali, Syed:
- The Spirit of Islam.
- A Short History of the Saracens نقله إلى العربية رياض رافت
- Gibbon, Edward:
- The History of the decline and Fall of the Roman Empire. نقله إلى العربية أحمد نجيب هاشم ومحمد على أبو درة
- Guillaume & Arnold:
- The Legacy of Islam.
- Hitti, philip K.:
- History of the Arabs.
- Hell, Joseph :
- Arab Civilisation : translated by Khuda Bukhsh.
- Gibb, H.A.R. ;
- Mohammedanism.
 - Trends of Islam.
 - Studies on Islamic Civilization.
- Margoliouth, D.S. :
- Mohammad and the rise of Islam.
- Donaldson, D.M. :
- The Shiite Religion.
- Fitzgerald, V. :
- Muhammedan Law.
- Goba, Khaled :
- The Prophet of the Desert.
- Irving, Washington
- Life of Mahomet.
- O'Leary, De Lacy :

- A Short History of the Fatimid Khaliphate.
- Arabia Before Muhammad.
Lane-pole, Stanley :
- The Muhammadan Dynasties.

نقله إلى العربية على الجارم بك

Mez, Adam :

- The Renaissance of Islam.
- Muir, W., Temple :
- the Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall.
- Life of Mohammed.
- Carlyle, Thomas :

نقله إلى العربية محمد السباعي

- Heroes and Hero Worship.
Macdonald, D.B. :
- Development of Muslim Theology, Jurisprudence, and
Constitutional theory.
- Nicholson, R. A. :
- The Mystics of Islam
- Literary History of the Arabs
- Studies in Islamic Mysticism.
Lewis, Barnard :
- The Origins of Islamism
Kremer, Alfred Von :

نقله عن الألمانية

- The Orient under the Caliphs. (Khuda buksh)
- Brockelmann, Carl :
- History of the Islamic Nations
Fayzce, Asaf Ali :
- Outlines of Muhammadan Law.
Wells, H.G. :
- Outline of the World History.
Striplin, G.W.F. :
- Ottoman Turks and Arabs
Maulana Mohammed Ali :
- The Early Caliphate
Butler, Alfred J. :

نقله إلى العربية محمد فريد أبو حديد

- The Arab Conquest of EGYPT.
Russel, Bertrand :
- History of Western philosophy.
De Tocqueville, Alexis.
- Democracy in America.
- Principles of Social Reconstruction.
Lasky, H.J. :
- Grammar of politics.
- An Introduction to politics.
- Political Thought in England.
Bury, J. :
- History of Freedom of thought.
Sabine, George :
- A History of Political Theory.
Creaves, H.R. G. :
- The Foundation of political Theory.
Lorimer :
- Institutes of the Law of Nations.
Oppenheim L. :
- International Law.
Laurence, T. J. :
- The Principles of International Law.
- Historians History of the World.
- The Encyclopaedia of Islam.

نقلها إلى العربية زكي خورشيد وعبد الحميد يونس والشتاوى.

(د) المراجع الفرنسية :

- Goldziher, Ignaz:
- Le Dogma et la Loi de L'Islam «Felix Asin» عن الألمانية ترجمة
- Dozy, R.P.A. :
- Histoire des Musulmans d'Espagne.
- Essai Sur l'Histoire de l'Islamisme.
Sanhoury, Dr. A.A. :
- Le Califat. paris 1926.

رسالة الدكتوراه للدكتور عبد الرازق أحمد السهوري.

Van Vloten, G. :

- Recherches sur la Domination Arabe, le Chutisme et les Croyances Messianiques sous le Khalifat des Omayyades.

نقله إلى العربية الدكتور حسن إبراهيم حسن.

Demombynes, Gaudfroy:

- Les Institutions Musulmanes.

De Perceval, Caussin:

- Essai sur L'Histoire des Arabes.

Dermengheim, Emile:

- La Vie de Mahomet.

Le Bon, Gustave:

- La Civilisation des Arabes.

نقله إلى العربية عادل زعير.

Sédillot, L.B. :

- Histoire Générale des Arabes.

Dawson, Christopher :

- Les Origines de l'Europe et de la Civilisation Européenne.

Berdeaux, Georges :

- Traité de Science Politique 7 Volumes.

Rousseau, J.J. :

- Du Contrat Social.

Cardet Louis :

- La Cité Musulmane.

Carra de Vaux :

- Les Penseurs de l'Islam.

Massignon :

- L'Annuaire du Monde Musulman.

Eugène, Jung :

- Le reveil de l'Islam et des Arabes.

Michaud :

- Histoire des Croisades.

D'Ohsson :

- Tableau Général de l'Empire Ottoman.

حاشية : أشرنا في سياق البحث إلى ما تناولناه من المراجع الأساسية وما استشهدنا به منها منسوباً إلى أصحابه أما ما عدا ذلك فقد أغفلناه إما لتكراره وإما لأنه لم يأت بجديد وإن أفاد في التحقيق والاستدلال وقد أوردناها جميعاً في قائمة المراجع.

المؤلف